المجلد السابع والعشرون للعام ٢٠٢٣م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

ظاهرة الاغتراب المكاني والزماني في شعر الأحنف العُكْبَرِي (٣٨٥هـ) دراسة أدبية

Spatial and Temporal Alienation Phenomenon in the Poetry of Al-Ahnaf Al-Ukbari (385 AH): A Literary Study

بقلم الباحثة

هدى علي حمود اللحيدان

درجة الماجستير في قسم اللغة العربية، تخصص الدراسات الأدبية،
كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، جامعة القصيم
المملكة العربية السعودية

العدد الثالث (إصدار ديسمبر ٢٠٢٣م)

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/٢٠٢٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

ظاهرة الاغتراب المكاني والزماني في شعر الأحنف العُكْبَرِي (٣٨٥هـ) دراسة أدبية

هدى علي حمود اللحيدان

قسم اللغة العربية، تخصص الدراسات الأدبية، كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، جامعة القصيم ، المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكتروني : A.huda.ali@hotmail.com

الملخص

هدفت الدراسة تناول ظاهرة الاغتراب المكاني والزماني في شعر الأحنف العُكْبَرِي، وجاءت مكونة من المقدمة: وتشتمل على ما يلي: أهمية البحث، وأسباب اختياره، مشكلة البحث والتساؤلات، أهداف البحث، الدراسات السابقة، منهجية البحث، وتكونت خطة البحث من. المبحث الأول: مفهوم الاغتراب ورحلته من علم النفس إلى عالم الإبداع، المبحث الثاني: أهمية المكان، والحنين إلى الوطن، المبحث الثالث: الشاعر والموت، المبحث الرابع: الشاعر وأحداث الزمان، ثم خاتمة بها أبرز نتائج البحث ومنها: أهم أنواع الاغتراب التي لمسناها في شعر الأحنف الاغتراب المكاني والزماني، فهما يشكلان حيزًا في شعره، وقد عبر عن غربته داخل الوطن وخارجه، وكان للاغتراب الاجتماعي مساحة شاسعة في نصوص العكبري، فقد عبر عن اغترابه عن الناس واغترابه عن قيم المجتمع، وقد استفحل الاغتراب الذاتي لديه، فنجد اغترابه عن ذاته الأصلية وكذلك إحساسه بالدونية، ولم يغفل الشاعر عن الاغتراب السياسي الذي يتمثل في الاستبداد السياسي، وظلم بعض الحكام.

الكلمات المفتاحية: الاغتراب، المكان، الزمان، الشعر، الأحنف العكبري.

Spatial and Temporal Alienation Phenomenon in the Poetry of Al-Ahnaf Al-Ukbari (385 AH): A Literary Study

Huda Ali Hamoud Al-Luhaidan
Department of Arabic Language, Literary Studies, College of Arabic Language and Social Studies, Qassim University, Kingdom of Saudi Arabia
Email: A.huda.ali@hotmail.com

Abstract

The study aimed to explore the phenomenon of spatial and temporal alienation in the poetry of Al-Ahnaf Al-Ukbari. It consists of an introduction covering the importance of the research, reasons for its selection, research problem and questions, research objectives, previous studies, and research methodology. The research plan includes the first section: the concept of alienation and its journey from psychology to the world of creativity. The second section discusses the importance of place and nostalgia for the homeland. The third section explores the poet and death, while the fourth section delves into the poet and temporal events. The study concludes with the major research findings, highlighting various types of alienation observed in Al-Ahnaf's poetry, including spatial and temporal alienation. These forms constitute a significant aspect of his poetry, expressing his sense of displacement within and outside his homeland. Social alienation has a prominent presence in Al-Ukbari's texts, reflecting his estrangement from people and societal values. The poet extensively addresses self-alienation, expressing estrangement from his original self and a sense of subjugation. Additionally, the study notes the poet's consideration of political alienation, manifested in political tyranny and the oppression of some rulers.

Keywords: Alienation, Space, Time, Poetry, Al-Ahnaf Al-Ukbari.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

لقد مر الأدب العربي بعدة مراحل عبر مختلف العصور ابتداءً بالعصر الجاهلي، إلى غاية العصر العباسي الذي شهد تحولا مميزا، وتطورا ملحوظا في كل المجالات، ولا سيما المجال الأدبي الذي ينير لنا الطريق، ويساعدنا على الكشف عن وجه من أوجه الحضارة، وما هذا البحث سوى محاولة لإماطة اللثام، وإظهار بعض الجوانب الخفية، ومحاولة لتسليط الضوء على مظهر من المظاهر الموجودة والمشاهدة في تلك الفترة من العصر العباسي، ألا وهو الاغتراب، وذلك من خلال شعر الأحنف العُكْبَريّ.

وهذا الشاعر هو أبو الحسن عقيل بن محمد الأحنف العكبري – نسبة إلى بلدة عُكْبَر– ت ٣٨٥هـ أحد شعراء الكدية (الفقر، والتشرد، والتسول، والصعلكة)، وقد أوسمه الصاحب بن عباد هذا الوسام قائلا في فنه: (فرد من بني ساسان)[١] – أي من كبار الشعراء، من ذوي الجذور الفارسية، غير أنه كان عربي اللسان عروبي الصفات، وقد عُدّ في الطبقة الأولى من شعراء طبقته، فعقدتُ العزم على تتبع ما فِي هذا الشعر من قيم أدبية وإنسانية، وما يحمل من رؤى وآراء في الحياة والناس، يمكن أن يقيس عليها، أو يلجأ إليها كل من عضته الأيام بنابها، أو ألقته الظروف الصعبة بين فكيها.

والبحث يتمحور حول الاغتراب المتمثل في اصطدام الشاعر ثقافيًّا أو اجتماعيًّا أو سياسيًّا، اصطدامه بالعصر الذي يعيش فيه، وبالمؤسسات العامة والخاصة، هذا الاصطدام الذي يكون غالبا ثروة أدبية، وثورة تعبيرية

(١) ينظر يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي، ت إبراهيم صقر، الناشر: مكتبة مصر، د. ت، ص ٣١٣، مج٣.

تجسد العلاقة الجدلية التي انبثقت عن هذا الاغتراب على مر الدهور، ولعل لاميةَ الشنفرى الجاهلي – التي يرى البعض أن حقها أن تعد في المعلقات– التي إن لم تكن باكورة هذا الاغتراب فقد كانت من أعظم تجلياته العربية والعالمية[1]، لعل هده اللامية تحدد العلاقة المستدامة بين الاغتراب والفن، ولعل دراستي للأحنف العكبري تجدد هذه التوأمة بينهما، مبرزة للقارئ الكريم إحدى آليات إنتاج الشعر.

وقد طرحتُ جملة من التساؤلات تشكل جوهر إشكاليته وهي:

• إن كان تهميش أي إنسان يؤدي غالبا إلى اكتئابه أولاً، ثم انسحابه ثانيًا من الحضور الاجتماعي، فهل الفنان المرهف الأحاسيس يستطيع –عبر الكلمة– أن يسير بالاتجاه المعاكس محولا اغترابه واكتئابه –عبر الأدب– إلى شعر يعيد للأدب دوره الرسالي، وللخطاب الأدبي مكانه ومكانته في التغيير والتأثير؟.

• في بحثي سؤال عن ظاهرة الاغتراب، حيث يضعها تحت مجهر الدرس الأكاديمي لينقل المصطلح من عالم التفسيرات العجلى والتأويلات المتسرعة إلى الآفاق العلمية لتتوج بالسؤال التالي:

• ما أثر الاغتراب في صياغة العكبري؟ وكيف انتهت معاناة محصورة بزمان مقصورة على إنسان؟ كيف انتهت المعاناة المؤقتة إلى إبداعات مؤبدة توقف عندها في الماضي مؤرخو الأدب، ولن تنتهي بوقوف النقاد عندها، بل ستظل الدراسات تتناسل بالأسئلة عن الاغتراب، والإبداع، والعلاقات الجدلية بينهما.

---

(١) ينظر: هموم الفرد والمجتمع بين لامية الشنفرى ورواية الشيخ والبحر، للروائي الأمريكي أرنست همنغواي، د/مصطفى بكري، من محاضراته في الدراسات العليا.

أهمية البحث وأسباب اختياره:

تكمن أهمية البحث في أن الدراسات والأبحاث الأدبية السابقة لم تدرس الاغتراب عند الأحنف العكبري، وكما لم تقم بدراسته دراسة معمقة فقد أحببت تسليط الضوء على هذا الشاعر، الذي يمثل الوجه الآخر للأدب والحياة المعبر عن التشرد والاغتراب.

وأيضًا تأتي أهمية هذه الدراسة في أنها استكمال لدراسات سابقة تناولت الاغتراب من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر العباسي، ولكن هذه الدراسة تختلف عن الدراسات السابقة، وذلك بدراسة الاغتراب عند شاعر مغمور لم يحظ بالدراسة الكافية.

وموضوع الاغتراب عند الأحنف العكبري- على حد علمي- من الموضوعات التي لم تفرد له دراسة مستقلة.

أهداف البحث:

١- تسليط الضوء على شاعر ينتمي إلى فئة مهمشة في الأدب العربي، حيث كان الاهتمام موجهًا نحو الشعراء الذين يتمركزون حول السلطة، فشعر المكدين في جملته على هامش الشعر العربي الذي كرسه اللغويون والنقاد ومؤرخو الأدب، ويعزى نعته بالهامشي إلى خصائصه الجمالية ومحتواه، وإلى ضياع كثير منه، وعدم شيوعه، وقلة اعتناء الباحثين به.

٢- الكشف عن مواطن الاغتراب عند الأحنف العكبري.

٣- دراسة مظاهر الاغتراب الاجتماعي، والذاتي، والسياسي، والمكاني، والزماني عند الأحنف العكبري.

مشكلة البحث والتساؤلات:

يممت وجهي قبل ظاهرة الاغتراب عند الأحنف العكبري لدراستها، ابتغاء كشف ما أعطته هذه الظاهرة من عطاءات أدبية، وإبداعات شعرية، شدتني إليها وأنا أطالع أشعاره.

وإذا كانت الأزمة أمَّ الإبداع، فإن الاغتراب قد تمظهر بإبداع شعري صادق المشاعر، يمتح من أعماق النفس، ويرتوي بوعي الحس الذي تألم شعورًا ليتألق شعرًا، متغنيا بغناء الإنسان ومعاناته، ولقد كان شعر الأحنف العكبري نموذجًا لافتًا في ذلك، حملني على الوقوف عنده شاعرًا وظاهرة تعبيرية فيها غير القليل من الفرادة الأدبية.

وإذا كان لكل بحث أسئلتُه وتساؤلاته، فإن بحثي لن يكون بدعًا في ذلك، يتساءل عن ظاهرة الاغتراب- بوضعها تحت مجهر الدرس الأكاديمي- لينقل المصطلح من عالم التفسيرات العجلَى والتأويلات المدرسية إلى الآفاق العلمية التي أرجو من الله أن تنهض بها دراستي المستأنية، متوسلة بذلك للتوصل إلى الجواب عن سؤال البحث:

ما أثر الاغتراب في صياغة شعر العكبري؟، وكيف انتهت المعاناة المؤقتة بإبداعات مؤبدة أثمرتها هذه الغربة؟.

تتبُّع ظاهرة الاغتراب في شعر العكبري، ومن ثم تحليلها وقراءتها قراءة أدبية تبرز ما فيها من جديد وتجديد، مبينة أثرها في الصورة الشعرية، وهل استطاعت نحت مضامين متميزة في الاغتراب، ونقله عبر الشعر من البكاء على أطلال الحرمان إلى مفاهيم وتعابير تعطي لشعراء هذه الفئة حق الوقوف المتساوي مع قامات وقمم الشعر العباسي والعالمي؟، وذلك بما يحمله شعرهم من ثراء في الدلالة، وغنى بمضامينَ ذات حمولات

مشعة بالأمل لكل المهمشين.

تشتمل خطة البحث على مقدمة، خمسة مباحث، وخاتمة.

المقدمة: وتشتمل على ما يلي:

- أهمية البحث، وأسباب اختياره.
- مشكلة البحث والتساؤلات.
- أهداف البحث.
- الدراسات السابقة.
- منهجية البحث.
- خطة البحث.

المبحث الأول: مفهوم الاغتراب ورحلته من علم النفس إلى عالم الإبداع.

المبحث الثاني: أهمية المكان، والحنين إلى الوطن.

المبحث الثالث: الشاعر والموت.

المبحث الرابع: الشاعر وأحداث الزمان.

منهج البحث:

كان منهجي في البحث المنهج الذي يجعل النص يقول رسالته فلا يقال عنه، ولا يقدم بين يديه، بل يقوله بالمنهج ما قاله فعلاً، فأنا لن أستبق في دراستي النص، بل سأعكف على دراسته لأقرأه قراءة استكشاف، ثم قراءة تدبر وتأمل تفضي إلى بيان:

- توجهه الرئيس واتجاهه الأساس في المضامين الشعرية، والأطر اللغوية التي أطرت بها تلكم المضامين.
- بيان أثر الاغتراب مفرداتٍ وصورًا، ومن ثم استكشاف المنهج الذي شكل مسار الشعر والشاعر.

•بيان أثر الكدية، والتسول، والتهميش، في الصياغة والفن، فليس من البحث في شيء أن نظن أن مهمتنا تقف عند حدود الكشف عن زمن ميلاد الشاعر والشعر، ومكان ذلك فحسب، إن اكتشاف مكانة الشاعر والشعر بوصفهما ثمرة للاغتراب والتهميش، واستكشاف كيف تحول الرفض الاجتماعي المتبادل بين الشاعر والمجتمع الذي تقبله مواطنا، ولكنه قلب له ظهر المجن إنسانا، وكيف رفض الشاعر أن يجزي على السلبيات بمثلها، بل رد عليها بفن يدينها ويدنيه عبر فنه من مرتبة المنقذ، بعد أن نبذه المجتمع بالعراء، ليواجه في وقت واحد فقرين: فقر ذات اليد، وفقر المجتمع من مخزون القيم من المرحمة، كما يحصل من بعض الشرائح في بعض العصور التي عرفت بها الأمة الإسلامية، ليواجه ذلك كله بأدب طليعي، كما قرأت في كثير من أشعار الأحنف العكبري الذي نقل الهجاء من الأشخاص إلى الأفكار، ومن السباحة في المياه الآسنة للتعصب العرقي والشعوبيات المدمرة، كبعض أشعار أبي نواس، وبشار فنقله الأحنف من ذلك إلى جلد الثقافة والأخلاقيات التي تثمر مثل هذه المواقف في غفلة أو تغافل من حراس الفضيلة والقيم.

إنِّي لأحسب أن ذلك سيكون جوهر بحثي ومنهاجه إن شاء الله، مؤملة أن أوفق إلى ترجمة نيتي بإنتاج مثل هذه الطروحات التي أريدها من البحث.

الدراسات السابقة:

وقد اعتمدت لإنجاز هذا البحث على دراسات متعددة ساعدتني في تجميع هذا الكم الهائل من المعلومات في هذا المجال، وأهمها:

١) الاغتراب في الشعر الأموي: للدكتورة فاطمة حميد السويدي:

وقد درست الاغتراب في الشعر الأموي دراسة عميقة، قسمت دراستها إلى ثلاثة أبواب، فدرست في الباب الأول الاغتراب بأنواعه، وقد درست موضوعات الاغتراب بدءًا من الاغتراب المكاني الذي دفعت إليه عوامل مجتمعه، ثم الاغتراب السياسي، وتناولت الاغتراب الاجتماعي، ثم الاغتراب العاطفي، وفي الباب الثاني درست التشكيل التصويري، وقسمت هذا المبحث إلى دراسة نظرية ودراسة تطبيقية، وخصصت الباب الثالث لدراسة التشكيل اللغوي في شعر المغتربين، مبرزة أهم الخصائص التي تميزت بها قصائد الاغتراب.

٢) الاغتراب في الشعر العباسي، القرن الرابع الهجري: للدكتورة سميرة سلامي.

وهذه الدراسة أطروحة دكتوراه قدمت في جامعة دمشق عام٢٠٠٠م. وقد عالجت الباحثة هذا الموضوع بالانطلاق من النتائج التي توصل إليها ريتشارد شاخت في كتابه (الاغتراب)، وقد وزعت الباحثة دراستها على أربعة أبواب، تناولت فيها مفهوم الاغتراب، واهتمت بما دار حول هذا المصطلح في الفلسفة الغربية خاصة، وتناولت ملامح الاغتراب في العصور العربية التي سبقت القرن الرابع الهجري، ودرست العوامل المؤدية إلى الاغتراب في القرن الرابع، ثم تحدثت عن مظاهر الاغتراب في الفترة التي درستها، ثم تكلمت عن الاغتراب عن المجتمع، وقهر الاغتراب، وتناولت الاغتراب عن الذات، والاغتراب الروحي عند الصوفية خاصة، ثم خصصت

الدراسة بشعر المتنبي.

٣) الاغتراب في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري: للدكتور صغير العنزي، دراسة في المفهوم والرؤية والفن.

وهذه رسالة ماجستير، وقد وزع الباحث دراسته على خمسة فصول، تناول فيها مفهوم الاغتراب في النقد والفلسفة، ثم تحدث عن العوامل المؤثرة في الاغتراب، وتكلم عن أنواع الاغتراب، وختم رسالته بدراسة فنية لامحة لأثر الاغتراب في اللغة الشعرية، والصور والإيقاع.

٤) الاغتراب في الشعر العربي المعاصر: للباحثة نهاد عبد الحفيظ سليمان.

وهذه الدراسة رسالة ماجستير قدمت في جامعة الإسكندرية ٢٠٠٧م، وقد قسمت الباحثة دراستها على خمسة فصول، تناولت في الفصل الأول المؤثرات العامة التي أثرت في تفشي ظاهرة الاغتراب وتطورها في شعرنا المعاصر، وفي الفصل الثاني درست نشأة وتطور الاغتراب في الشعر العربي، وفي الفصل الثالث تناولت صور الاغتراب في الشعر العربي المعاصر، وأما في الفصل الرابع فتحدثت عن القضايا الموضوعية للاغتراب في الشعر العربي المعاصر، وفي الفصل الخامس تناولت التشكيل الأدائي للاغتراب في الشعر العربي المعاصر.

المبحث الأول:

مفهوم الاغتراب، ورحلته من علم النفس إلى عالم الإبداع

١) مفهوم الاغتراب:

يعد الاغتراب ظاهرة إنسانية، فنجده في مختلف المجتمعات، وفي كل الثقافات، وليس محصورًا في عصر دون عصر، فتاريخ الإنسانية حافل بمشاهد الاغتراب، ومن أكثر المفاهيم التصاقًا بالإنسان، «فهو من طبيعته، بل يمكن القول إنه دافع من دوافعه الأساسية، يختلف من إنسان إلى آخر، ومن مجتمع إلى آخر؛ وذلك لأنه يتلوّن بطبيعة صاحبه، وبالمجتمع وما يحكمه من أنظمة ومؤسسات، وبطبيعة العصر وبما يحتويه من قيم وأعراف ومعارف» (١).

وقد حظي مفهوم الاغتراب باهتمام كثير من الباحثين في مختلف المجالات الفكرية والثقافية والفنية، وقد صوره الشعراء من خلال تجاربهم الإبداعية.

لذلك لابد من وقفة عند مفهوم الاغتراب، من خلال الكشف عن الجذر اللغوي لهذه الكلمة الذي يمتد إلى عصور قديمة، وإبراز دلالات هذا المصطلح لدى الفلاسفة والمفكرين والباحثين وغيرهم، ممن اهتموا بظاهرة الاغتراب في عصرنا الحاضر.

فمادة الغربة في (تهذيب اللغة) للأزهري (ت-٣٧٠) من «غرب عنا يغرب غربًا، وقد أغربته إذا نحيته» (٢).

---

(١) عمر بوقرورة، الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث،١٩٤٥م-١٩٦٢م، منشورات جامعة باتنة، (د. ط، د، ت)، ص ١٣.

(٢) تهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري. تحقيق: عبد السلام هارون وآخرين، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة١٩٦٤م-١٩٦٧م، ٨/ ١١٣.

وعند الجوهري في (الصحاح) (ت -٣٩٣) يقول: «التغريب النفي عن البلاد، وأيضًا غرب بعُد، وأغرب عني أي: تباعد» [١].

ويشير ابن فارس في (مقاييس اللغة) (ت -٣٩٥) إلى أن الغربة هي: البعد عن الوطن.

يقال: «غربت الدار. ومن هذا الباب: غروب الشمس، كأنه بُعْدُها عن وجه الأرض، وشَأْو مغربٌ، أي: بعيد، ويقولون: «هل من مُغربةِ خبرٍ»، يريدون خبرًا أتى من بُعد» [٢].

ونجد قريبًا من هذا المعنى في (المحكم والمحيط الأعظم) لابن سيده (ت-٤٥٨) فيقول: «والغُربة، والغُرب: النزوح عن الوطن» [٣].

وعند ابن منظور (ت-٧١١هـ) في (لسان العرب) نجد المعاني السابقة مجتمعة بقوله: «والغَربُ: الذهاب والتنحِّي عن الناس.

وقد غرَبَ عنا يَغْرُبُ غَرْبًا، وغَرّبَ، وأَغْربَ، وغَرَّبه، وأغربه: نَحّاه. وفي الحديث: أن النبي صلى الله عليه وسلم، أمر بتغريب الزاني سنة إذا لم يحصن؛ وهو نفيه عن بلده.

والغربة والغَربُ: النوى والبعد، وقد تغَرّبَ» [٤].

ويمكن القول مما سبق: إن مفهوم الاغتراب عند اللغويين يدل على

---

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل حماد الجوهري، ت أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٩٠م، بيروت، لبنان، ١/ ٤٠٤.

(٢) مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ت عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ٥/ ٤٢٠- ٤٢١، مادة: غرب.

(٣) المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، لعلي بن إسماعيل بن سيده، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط١، ١٣٩١هـ-١٩٧١م، مكتبة البابي الحلبي، ٥/ ٢٩٩، مادة: غرب.

(٤) لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، ص ٦٣٨.

الغربة المكانية، وهي البعد عن الوطن، ولكنهم لم ينشغلوا بالغربة النفسية أو الغربة في الوطن.

وإذا بحثنا عن معنى الغربة والاغتراب في كتب التراث نجد أبا الفرج الأصفهاني في كتابه (أدب الغرباء) يرى أن الغريب هو كل مشرد عن الوطن، فيقول:

«وقد جمعت في هذا الكتاب ما وقع إلي وعرفته، وسمعت به وشاهدته من أخبار، من قال شعرًا في غربة، ونطق عما به من كربة، وأعلن الشكوى بوجده إلى كل متشرد عن أوطانه، ونازح عن إخوانه، فكتب بما لقي على الجدران، وباح بسره في كل حانة وبستان، إذا كان ذلك قد صار عادة الغرباء في كل بلد ومقصد، وعلامة بينهم في كل محضر ومشهد...» (١).

ولقد حظي الاغتراب باهتمام فلاسفة العرب، فنجد أبا حيان التوحيدي في كتابه (الإشارات الإلهية) واصفًا حال الغربة التي أحسها هو بين أهله وفي عصره، يقول: «أين أنت من قريب قد طالت غربته في وطنه، وقل حظه ونصيبه من حبيبه وسكنه؟!».

ويقول: «أغرب الغرباء من صار غريبًا في وطنه، وأبعد البعداء من كان بعيدًا في محل قربه؛ لأن غاية المجهود أن يسلوَ عن الموجود، ويغمض عن المشهود، ويُقصى عن المعهود...» (٢).

---

(١) أدب الغرباء، لأبي فرج الأَصْبَهَاني، نشرَه عن مخطوطة فريدة في العالم د/ صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت لبنان، ط١، ١٩٧٢م-١٣٩٢هـ، ص ٢١- ٢٢.

(٢) الإشارات الإلهية، أبو حيان التوحيدي، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣م، ص ١١٣.

(وأغرب الغرباء) كما يطلق عليه التوحيدي هو الذي يكون غريبًا وهو في الوطن وبين الآخرين، فالتوحيدي صور لنا المغترب الذي يشعر بعدم الانتماء، والانفصال عن الآخرين، وهو يعيش داخل الوطن(١).

إذن الغربة عند التوحيدي هي الغربة النفسية والاجتماعية، التي تعني الانفصال عن الآخرين، وعدم التكيف والتلاؤم مع المجتمع. ولعله يكون أول أدبائنا في الالتفات إلى المعنى النفسي للغربة.

وإذا انتقلنا إلى مفهوم الاغتراب في الفكر الإسلامي فنجد قصة إهباط آدم وحواء عليهما السلام من الجنة إلى الأرض، وفي هذا الإهباط غربتان:

غربة مكانية: وهي الهبوط من الجنة إلى الأرض.

وغربة نفسية: تتمثل في الانتقال من نعيم الجنة إلى شقاء الأرض، وما يتبعه من نعيم وشقاء ومحن ومنح.

وقد حث الإسلام على الزهد في الدنيا وحذر من الإغراق في ملذاتها؛ لأن من لا يشعرون بهذا النوع من الاغتراب في هذه الحياة هم من أخذتهم الحياة بزينتها وزخرفها، أما المؤمنون فهم مشتركون في هذه الغربة، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ((كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل)) (٢).

ويصف النبي صلى الله عليه وسلم غربة أهل الإسلام فيقول: ((بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبي للغرباء)) (٣).

---

(١) ينظر:الاغتراب سيرة ومصطلح، محمودرجب، ط٤،١٩٩٣م، دارالمعارف القاهرة، ص٤٣.

(٢) فتح الباري في شرح صحيح البخاري، لابن حجر العَسْقَلانِيّ، دار مصر للطباعة، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م، ١١/ ٣٢٥.

(٣) صحيح مسلم، الإمام مسلم، ت محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٥م، ١/ ١٣٠.

فعندما بزغ نور الإسلام، وبدأ النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إليه، لم يستجب لدعوته إلا قليل من الناس، وُصِفوا بأنهم غرباء في وسط المجتمع المشرك، وبعد انتشار الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها زالت هذه الغربة، ولكن هذه الغربة ستظهر مرة أخرى عندما يجد المؤمن نفسه غريبًا في مجتمع كثرت فيه مغريات الحياة، وفتن الناس بالشهوات والشبهات.

ويتضح من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه يثني على الغربة، وذلك عندما تعج الدنيا بالفتن، ويتراجع سلطان الدين، ويجد الفرد نفسه في جماعة بينه وبينهم فوارق عقدية وثقافية.

تقول سميرة سلامي: «وقد قسم أحد شيوخ الإسلام، هؤلاء المغتربين إلى قسمين:

القسم الأول: هو الذي يصلح نفسه عند فساد الناس.

القسم الثاني: هو الذي يصلح ما أفسد الناس من السنة، وقد جعله أعلى القسمين وأفضلهما.

فالفقيه في الدين والمتمسك بالسنة، الذي يميزها من الأهواء والبدع، في آخر الزمان، هو غريب، غريب في دينه لفساد أديانهم، غريب في تمسكه بالسنة لتمسكهم بالبدع، غريب في اعتقاده، لفساد عقائدهم، غريب في صلاته، لفساد صلاتهم، غريب في طريقه، لضلال وفساد طرقهم، .... إلخ» [١].

(١) الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، سميرة سلامي، الناشر: دار الينابيع، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م، ص ٢٩-٣٠.

فاغتراب المؤمنين يكمن في تمسكهم بدينهم، ومقاومة الدنيا وزينتها، ومحاربة الفتن وملذات الحياة، فهم يناضلون من أجل الآخرة والفوز بالجنة.

ويرى فتح الله خليف أن الاغتراب بالمعني الإسلامي: «اغتراب عن الحياة الاجتماعية الزائفة الجارفة، اغتراب عن النظام الاجتماعي غير العادل، فالغرباء قاوموا الحياة ومغرياتها بطريقة إيجابية، فقهروا السلطتين جميعًا سلطة الحكام وسلطة النفس بترويضها على الطاعات والمجاهدات، واعتزالهم الناس» (١).

فنجد الاغتراب في الفكر الإسلامي يحمل معنى انفصال الإنسان عن المجتمع ومؤسساته.

الاغتراب في علم النفس:

اعتاد علماء النفس على النظر إلى الاغتراب بوصفه ظاهرة متعددة الأبعاد، فهذه الظواهر المتعددة، والأبعاد المختلفة، تتكئ عليها الدراسات النفسية والاجتماعية ومنها:

١) العجز: والمقصود به «شعور الفرد بأن لا حول له ولا قوة، وأنه لا يستطيع التأثير في المواقف الاجتماعية التي يواجهها» (٢)، «وإحساسه بأن مقدراته في مجملها ليست ملكه أورهن تصرفه، وإنما تتحكم فيها وتسيرها كيانات أخرى خارجة عن ذاته، إنه العجز الذي يقف أمامه الشخص مكبلاً في غير استطاعته» (٣)، فهو لا يملك القدرة على التحكم فيما

(١) الاغتراب في الإسلام، فتح الله خليف، عالم الفكر، مج ١٠، ع١، ١٩٧٩م، مجلة دورية تصدر عن وزارة الإعلام في الكويت، ص ٨٨.

(٢) ينظر: دراسات في سيكولوجية الاغتراب، عبد اللطيف محمد خليفة، ط ٢٠٠٣، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص ٣٦.

(٣) الاغتراب في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري دراسة في المفهوم والرؤية والفن، صغير العنزي، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٢٣هـ، ص ١٨.

حوله، ويعجز عن السيطرة على تصرفاته ورغباته.

٢) اللامعنى: «ويعني شعور الفرد بعدم وجود معنى، أو مغزًى حقيقي للأشياء التي تحدث أمامه، أو للممارسات التي يقوم بها» (١)، أو كما يقول (سيمان): «هو توقع الفرد أنه لن يستطيع التنبؤ بدرجة عالية من الكفاءة بالنتائج المستقبلية للسلوك» (٢).

فهو إحساس الفرد بأن حياته بلا هدف، وأنها لا قيمة ولا معنى لها، وأنه لا يجني أي فائدة من الحياة، إنه شعور الفرد بافتقاد وجود هدف واضح ومحدد لحياته.

٣) اللامعيارية: «وهي حالة انهيار المعايير التي تنظم السلوك وتوجهه...وكما يقول (سيمان): الحالة التي يتوقع فيها الفرد بدرجة كبيرة، أن أشكال السلوك التي أصبحت مرفوضة اجتماعيًّا، غدت مقبولة تجاه أي أهداف محددة، أي أن الأشياء لم يعد لها أي ضوابط معيارية، وما كان خطأ أصبح صوابًا، وما كان صوابًا أصبح ينظر إليه باعتباره خطأ...» (٣)، فهو شعور الفرد بالفشل في إدراك وتقبل قيم المجتمع ومعاييره السائدة.

٤) العزلة الاجتماعية: «ويقصد بها شعور الفرد بالوحدة والفراغ النفسي، والافتقاد إلى الأمن والعلاقات الاجتماعية الحميمة» (٤)، أي إحساس الفرد بالانفصال عن الآخرين، وعدم الانتماء لهم.

٥) التشيؤ: يشير التشيؤ إلى «أن الفرد قد تحوّل إلى موضوع وفقد

---

(١) الاغتراب في القصة القصيرة في الجزيرة العربية، أميرة علي الزهراني، رسالة دكتوراه، جامعة الملك سعود، ١٤٢٦هـ-١٤٢٧هـ، ص ٢٧.

(٢) دراسات في سيكولوجية الاغتراب، عبد اللطيف خليفة، ص ٣٧.

(٣) ينظر: دراسات في سيكولوجية الاغتراب، عبد اللطيف خليفة، ص ٣٧-٣٨.

(٤) ينظر: دراسات في سيكولوجية الاغتراب، عبد اللطيف خليفة ، ص ٣٩.

إحساسه بهويته، ومن ثم بأنه مقتلع حيث لا جذور تربطه بنفسه أو بواقعه» [١]، «فالقيم والكائنات الإنسانية تتحول إلى أشياء وسلع قابلة للبيع في سوق الحياة» [٢]، فهو شعور الفرد بأنه لا قيمة له، ويفقد ذاته الحقيقية، وسيطرة الجوانب المادية على مجريات الحياة.

ويرى أحمد خيري حافظ «أن الاغتراب يعني وعي الفرد بالصراع القائم بين ذاته وبين البيئة المحيطة به بصورة تتجسد في الشعور بعدم الانتماء والسخط والقلق، وما يصاحب ذلك من سلوك إيجابي، أو الشعور بفقدان المعنى واللامبالاة، ومركزية الذات والانعزال الاجتماعي، وما يصاحبه من أعراض إكلينيكية» [٣].

ومنهم من يرى أن الاغتراب يعني تركيز اهتمام الإنسان بحدث معين، فيشغل تفكيره وينقله بعيدًا عن ذاته. كما يقول محمود رجب: «إن لمصطلح الاغتراب استخداماتٍ نفسيةً تتفاوت قوة وضعفًا، فقد يعني مجرد السرحان أو الشرود الذهني الذي ينشأ نتيجة اهتمام الإنسان بأمور معينة اهتماما يبعده عن ذاته، وقد يعني الحس أو غياب الوعي» [٤].

وكما أن الاغتراب النفسي يحدد قدرة الفرد على الانتماء للآخرين، فإننا نجد عبد المنعم الحفني يرى: «أن الاغتراب عن النفس والذات الحقيقية يحدد قدرة الفرد على الانتماء للآخرين، وهذا الاغتراب عن الآخرين يحدد

---

(١) مظاهر الاغتراب لدى بعض الطلبة السوريين بمصر، بشرى علي، مجلة جامعة دمشق، المجلد٢٤، العدد الأول ٢٠٠٨م، ص ٥١٩.

(٢) الاغتراب في العصر العباسي، صغير العنتري، ص ١٧.

(٣) الاغتراب النفسي والاجتماعي وعلاقتها بالتوافق النفسي والاجتماعي، صلاح الدين أحمد، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م، ص ٤١.

(٤) المرجع السابق، ص ٤٢.

قدرة الفرد على اكتشاف نفسه، أي أن الاثنين متداخلان، يعتمد كل منهما على الآخر» (١).

ويعد ما كتبه (إيريك فروم) من أكثر البحوث دقة وعمقًا في موضوع الاغتراب: «حيث تحدث عنه، وهو ينظر للاغتراب على أنه نمط من التجربة يرى الفرد نفسه فيها كما لو كانت غريبة عنه، أو منفصلا عنها؛ ولهذا استخدم مصطلح الاغتراب الذاتي أو اغتراب النفس، الذي يعني ضعف الصلة أو انعدامها بين الفرد وذاته، ويعزو أسباب الاغتراب إلى طبيعة المجتمعات الصناعية، وهيمنة التكنولوجيا والقيم والاتجاهات، والأيديولوجيات التسلطية...» (٢).

فهو يشير إلى عدم مقدرة الفرد على التواصل مع نفسه وإحساسه، بالانفصال عما يرغب في أن يكون عليه، وبين إحساسه بنفسه في الواقع.

فالاغتراب له أسباب ذاتية وموضوعية، والمبدعون أو المبتكرون في المجتمع تدفعهم العوامل الذاتية أكثر من أي عوامل أخرى، وبخصوص ذلك «يرى كينيستون أن هناك أسبابًا ذاتية، وأسبابًا موضوعية تؤدي إلى الاغتراب، ويرد الأسباب الذاتية إلى عوامل نفسية ديناميكية تحدث في نمو الفرد، أما الأسباب الموضوعية فهي الظروف المحيطة بالفرد وما يكونها من عوامل حضارية، وثقافية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية» (٣).

---

(١) الاغتراب النفسي والاجتماعي وعلاقتها بالتوافق النفسي والاجتماعي، صلاح الدين أحمد ، ص ٤٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٢.

(٣) الاغتراب في الشعر الأموي، فاطمة محمد حميد السويدي، ط١، ١٩٩٧م، الناشر مكتبة مدبولي، صفحة (ت) من المدخل.

مرحلة الاغتراب وانتقاله من علم النفس إلى عالم الإبداع:

لم يظل الاغتراب تحت وطأة التعريفات النفسية والمصطلحات العلمية، بل انطلق إلى عالم الإبداع، فهناك العديد من الشعراء الذين دفعهم الاغتراب إلى الإبداع، فعبروا عن أحاسيسهم وانفعالاتهم بكل صدق ووضوح، «فالفنان الغريب يتخذ من الفن وسيلة لنقل تجربته الفردية مع الاغتراب، بما تحمله من مشاعر وأحاسيس فريدة، وقد تلتقي تجربته الخاصة مع تجارب الآخرين التي يلتقطها الفنان، ليضيفها إلى تجربته الخاصة؛ مما يزيدها عمقًا وثراءً، ثم يترجمها عن طريق الفن، وتلتقي الفنون كلها في ذلك، رغم اختلاف طرائق التعبير في كل منها، كما تلتقي في أنها تنقلنا إلى عالم آخر، فنغترب بها عن عالمنا الواقعي، وذلك أن الفن هو أسلوبنا البشري في تكوين عالم يكون غريبًا عن الواقع، عالم لا يكون مناظرًا له، ولا يمكن وصفه بأنه مجرد تعبير عنه...» (١).

فالفنان يواجه الاغتراب بالفن أيًّا كان هذا الفن، سواء أكان لوحة فنية يرسمها أم قصيدة شعرية ينظمها، محاولاً بذلك التحليق بعيدًا عن الواقع.

ومنهم من يرى أن العملية الإبداعية مرتبطة بالاغتراب، «ويرى (ولبرج) أن العملية الإبداعية مرتبطة بالاغتراب، إلا أننا لا ينبغي أن نجعل الاغتراب عنصرًا أساسيا للعملية الإبداعية، ويؤيد هذا القول ما توصل إليه (بورناهم) الذي شعر في فترة من الفترات بالألم والضيق، وبالتالي شعر بالاغتراب النفسي، فاستطاع الاستفادة من هذه الحالة، فاتجه إلى الكتابة،

(١) الاغتراب في الشعر العربي المعاصر، نهاد عبد الحفيظ سليمان الشريف، رسالة ماجستير، جامعة الإسكندرية، ٢٠٠٧م، ص ٣٣.

فانعكست هذه التجربة على نتاجه الأدبي» [١].

«ودرس (مورهان) و (توانا) العلاقة بين سمات الشخصية والاغتراب لدى عينة مكونة من (١٠٠) كاتب هندي، تتراوح أعمارهم بين ٢٣- ٨٢ سنة من كتاب الرواية والقصة القصيرة، وتوصلا إلى أن هؤلاء المبدعين قد حصلوا على درجات عالية في الاغتراب، مقارنة بالجمهور العام، وأن العديد من المبدعين يظهرون العديد من سمات الشخصية المغتربة» [٢].

وإذا أردنا أن نعرف الإبداع الفني فإننا نجد (بوركهارت) يعرفه «بأنه حالة تعبيرية يعبر بها الفنان عن وجهة نظره في الحياة، وتخضع تلك الحالة التعبيرية لنظام جمالي؛ مما يتيح الاتصال بين الفنان المبدع والحياة بكل ثرائها وشمولها..ولا شك أن ما قدمه الفنانون والأدباء من اعترافات صريحة بما يعانونه من قلق واغتراب يمثل أحد المؤشرات العامة التي تفيد وجود علاقة أو ارتباط من نوعٍ ما بين الاغتراب والإبداع الفني» [٣].

فعملية الإبداع الفني حظيت باهتمام عددٍ كبيرٍ من الباحثين والمتخصصين في شتى المجالات الفنية، خاصة الباحثين في علم النفس، فقام بعضهم بعمل دراسات عن هذه العملية ومراحلها عند عدد من الفنانين، «ومنها دراسة قدمتها (كاترين باتريك) عن عملية الإبداع لدى الشعراء والفنانين والمصورين، وانتهت منها إلى التعرف على أربع مراحل للتفكير

---

(١) الاغتراب في القصيدة الجاهلية، لمحمود هياجنة، دراسة نصية، دار الكتاب الثقافي، الأردن، عمان ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، ص ٣٢.

(٢) الاغتراب في حياة ابن دراج وشعره، روضة بلال لمولد، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، ص ٢٣.

(٣) ينظر: الاغتراب والإبداع الفني، محمد عباس يوسف، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ٣٣- ١٠٤.

الإبداعي، أو للعملية الإبداعية وجدت جميعها لدى كل المفحوصين، وهي:

١- مرحلة التهيؤ أو الاستعداد:

وهي البداية حين يتعرض الفنان لأفكار جديدة تأتلف بسرعة.

٢- مرحلة الاختمار:

وهي تتبع أو تصاحب المرحلة السابقة، وتعبر في الغالب عن حالة مزاجية أو فكرة تختمر دون إرادة الفنان، ثم تعتمل في نفسه، بينما يكون في انشغال عنها بأمر آخر، ولكنها قد تطفو إلى الوعي من وقت لآخر.

٣- مرحلة الإشراق:

وهي المرحلة التي تتبلور فيها الفكرة وتتخلق، بعد ما كانت مختمرة أو غير مشعور بها، فتعلن عن نفسها سافرة.

٤- المراجعة أو التحقيق أو التنفيذ:

وهي المرحلة التي يقوم فيها الفنان بتمحيص الفكرة، ثم تنفيذها والتعبير عنها» [١].

إذن نلاحظ أن هناك علاقةً بين الاغتراب والإبداع، فتحرر الاغتراب من التعريفات النفسية إلى العمليات الإبداعية، معبرًا عن مشاعر وأحاسيس المغتربين، فاتخذوا من الفن وسيلة للتعبير والبوح عما بداخلهم من مكنونات نفسية تبحث لها عن مخرج، فلم تجد إلا الفن.

وإذا تصفحنا الشعر العربي القديم فإننا نلمح تأثير الاغتراب على الشعراء منذ العصر الجاهلي، فحياة الإنسان الجاهلي قائمة على التنقل من مكان إلى آخر، «ولو رجعنا إلى حياة الإنسان الجاهلي لوجدنا أنها رحلة لا

(١) الاغتراب في الشعر العربي المعاصر، نهاد عبد الحفيظ، رسالة ماجستير، جامعة الإسكندرية، ٢٠٠٧م، ص ٤٤، ٤٥.

تهدأ وراء الكلأ، وانتقال من مكان إلى مكان، وتتبع لمساقط الغيث حيث كان، فالهجرة والتنقل تأتي وفقًا لضرورة عصية على إرادة الإنسان الجاهلي، وهو لا يملك لها دفعًا» [١].

فالإنسان كان يجوب الصحراء ويقطع الفيافي بحثًا عن لقمة العيش، وقد صور الشعراء في أشعارهم حياة الغربة والاغتراب، فالفنان الجيد هو الذي يستطيع أن يستفيد من تجارب اغترابه، فيكون هذا الاغتراب بمثابة الجمرة التي توقد فنه وتزيده قوة.

وها هو امرؤ القيس يصور لنا غربته، فقد عانى من ألمها وتجرع مراراتها، وهو من الشعراء الذين قاسوا مرارة الحرمان، بفقد والده ومحاولته الأخذ بثأره، بالإضافة إلى ما فرضته عليه طبيعة الحياة الصحراوية القاسية، فهي حياة مبنية على الترحال، فيقول عندما رأى امرأة تدفن إلى سفح عسيب الذي مات عنده[٢]:

أجارتنا إن الخطوب تنوبُ ... وإنِّي مقيمٌ ما أقامَ عسيبُ

أجارتنا إنا غريبان ها هُنا ... وكل غريبٍ للغريب نسيبُ[٣]

وأما عنترة العبسي فيصور لنا حاله إذا ابتعد عن وطنه واغترب عنه، وأن حب الوطن يقترن بحب الأولاد[٤]:

---

(١) الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، سميرة سلامي، ص ٦٩.

(٢) ديوان امرئ القيس، ضبطه وصححه: مصطفى عبد الشافي، ط٥، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص ٤٩.

(٣) يعني أن الغريب نسيب الغريب، لأن الغربة تجمع بينهما كما يجمع النسب بين المتباعدين في القرابة. كما ورد في الديوان. ص٦٥.

(٤) شرح ديوان عنترة بن شداد، عني بتصحيحه: أمين سعيد، المطبعة العربية بمصر، د، ت، ص ٦٥.

أحـــرقتني نـــارُ الجَـــوَى والبـــعادِ بعَـــد فقـــدِ الأوطـــانِ والأولادِ

شـــابَ رأســـي فصـــار أبـــيضَ لونًـــا بعـــد مـــا كـــانَ حالكًـــا بالســـوادِ

إذن فقد عانى الشعراء في الجاهلية من الاغتراب نتيجـة لظـروفهم المعيشية القاسية، التي تجبرهم على الهجرة من مكان إلى آخر، مما يتـرك الأثر العميق في نفوسهم، فهم يعانون من الغربة المكانية من خلال البعد عن الوطن.

ونرى ذلك عند عمالقة الشعر في العصر العباسي، فأبو تمام كان كثير التنقل والترحال، طلبًا للعطاء والنوال ممن مدحهم مـن الخلفـاء والـولاة، ففرقته الغربة وأبعدته عن أهله وإخوانه، فكان يغترب عـن وطنـه فـيحن إليه(١):

مـــا اليـــومُ أول تودِيـــعٍ ولا الثـــاني الـــبين أكثـــرُ مـــن شـــوقي وأحزانـــي

دعِ الفـــراقَ فـــإن الـــدهرَ ســـاعَدهُ فصـــارَ أملـــكَ مـــن روحـــي بجُثمـــاني

و أما المتنبي الشاعر الفحل فإن الغربة لم تقف حاجزًا مانعا لإبداعـه وتفتنه في شعره، فهو يعبر عن الاغتراب بقوله(٢):

مَغَـــاني الشـــعبِ طيبًـــا في المغـــاني بمنـــزلةِ الربيـــعِ مـــنَ الزمـــانِ

ولكـــن الفتـــى العربـــيّ فيهـــا غريـــبُ الوجـــهِ واليـــدِ واللســـانِ

فهو يصور غربة الفتى العربي في بلاد فارس، وكيف أنه أصبح غريبًا وسط الأعاجم، غريبًا في شكله وفي لغته.

---

(١) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبـده عـزام، ط٤، الناشـر: دار المعارف، (د، ت)، القاهرة، ص ٣٠٨.

(٢) الاغتراب في الشعر العربي المعاصر، نهاد عبد الحفيظ، ص ١٥٤.

ونرى أبا العلاء المعري مصورًا لنا غربته، وأنه يبحث عن أصدقاء يتحلون بالدين والأخلاق الفاضلة، بعيدين عن المظاهر والرياء فيقول[١]:

وقد فتشتُ عن أصحابِ دينٍ لهم نُسكٌ وليس لهم رياءُ

فنرى أن الاغتراب لم يكن الوسيلة الوحيدة لنبوغ الشاعر، بل كان حافزًا ودافعًا لهؤلاء الشعراء المبدعين نحو الإبداع، حتى أصبحوا من شعراء الطليعة المبدعة.

(١) اللزوميات، أبو العلاء المعري، حققه وأشرف على طباعته جماعة من الإخصائيين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، (د، ت)، ٢٠٠١م، ١/ ٤١.

المبحث الثاني: أهمية المكان والحنين إلى الوطن.

يشكل المكان بعدًا مهمًّا لدى الشعراء، فهناك رباط عميق يربط بينهما، فالحنين إلى الوطن متأصل في الإنسان منذ عهود بعيدة، فالشاعر الجاهلي وقف كثيرًا على الأطلال وتغنى بالديار، فالمكان هو الذي يعيش فيه الشاعر ويحتويه، فأصبح «المكان هو الفضاء الأمثل الذي تنهل منه عملية الإبداع لدى الشاعر تصوراتها وشعورها، وذلك عبر عملية التجادل بينه وبين الذات» [(١)]، فالاندفاع نحو المكان، والوقوف على دلالاته التاريخية والحضارية يجعل الشاعر أكثر صدقًا، وأعمق تعبيرًا.

«رأى بعض الأعراب ابنًا له يختطّ منزلا بطرف عصاه، فدنا منه، وقال: «أي بنيّ إنه قميصك، فإن شئت وسّعت، وإن شئت ضيّقت»، وفي حركة الأعرابي تلك جملة من الحقائق المرتبطة بفلسفة المكان، قد لا نجد فيها -لأول وهلة- سوى إشارة إلى السعة والضيق الماديين، ويقف نظرنا عند البيت، وقد تفسّحت أرجاؤه، أو ضاقت أقطاره، وغدت حرجة تعوق الحركة والانبساط، بيد أن التروي قليلا، وتجاوز المنزل إلى القميص، يكشف شيئًا جديدًا في معضلة المكان، مادام القميص ألصق الأثواب بجسد الإنسان، وألوط به، وكأن المنزل –وهو يكتسب خصوصية القميص– يصير امتدادا للجسد ذاته، يجد فيه نعت الانبساط السالف دلالة جديدة، تجعل راحة الجسد لا تقف عند حدود أعضائه، وإنما تمتدّ لتشمل المكان كلّه، بل وأكثر من ذلك، قد يكتسب المكان في أثر رجعي، من الجسد انبساطه الخاص، فتسري فيه أحاسيس صاحبه جيئة وذهابا، في تبادل عجيب يعطي

(١) دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر: قادة عقاق، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١، ص ٢٧٩.

للمكان حياة، يتعذر على النظرة العجلى استكناه أسرارها» [١].

وهكذا (فعكبرا) [٢] عند شاعرنا الأحنف ليست مجرد ذكريات قديمة، وأيامَ لهو ومجون فحسب، إنما هي أرض سكنت بها الروح، وبها سكن المحبوب، وبها كل جميل وأديب، فالاغتراب جعل من (عكبرا) في عين الأحنف المثل الأعلى الجمالي، فيقول[٣]:

إنِّي رأيتُ ومثلي مَنْ رأى عجبًا ... فظلَّ في حيرةٍ من ذلكَ العجبِ

رأيتُ في (عكبَرا) نشئًا كأنهمُ ... من حسنِهم فتنٌ صبتْ على لُعَب

مثلُ الطواويسِ إلا أنَّهم بشرٌ ... حلوا من الحسنِ في العالي من الرُّتب

أعداهم مُسْلِموهُمْ حُسنَ طبعِهِمُ ... والجارُ يأخذُ طبعَ الجارِ عن كَثَبِ

يا حبذَا (عُكبرا) أرضًا وساكنُها ... وما حوتْ من مليحِ الوجهِ والأدبِ

وفي بعض القصائد لم يكتف بذكر بلده، بل فصل في ذكر حواريها القديمة ومدنها، حيث يقول[٤]:

إذَا أنا جاوزتُ (البقيعَةَ) سالمًا ... وجاوزتُ (بارمَّا)[٥] فنعمَى أرومُها

---

(١) فلسفة المكان في الشعر العربي قراءة موضوعاتية جمالية، د. حبيب مونسي، من منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق، ٢٠٠١م، ص ١٧.

(٢) عكبرا: هي مدينة صغيرة على شرقي دجلة، في طريق الموصل، بينها وبين بغداد سبعة فراسخ. كما ورد في الديوان، ص ١٢٤.

(٣) ديوان الأحنف، ص ١٢٤.

(٤) المرجع السابق، ص ٤٦٣.

(٥) بارما: جبل بين تكريت والموصل، وأيضًا قرية في شرقي دجلة الموصل، معجم البلدان، شهاب الدين الحموي، ١/ ٣٢٠.

وجاوزتُ (جسرَ النهروانِ)[١] مشرقًا ووافيتُ (باجسرِي)[٢] ولاحتْ حجومُها

وخيَّمتُ أرضًا آمنَ الله أهلها وأوسعهَا خصبًا وعدلاً قسيمها[٣]

لقد بدأ واضحًا في الأبيات السابقة أن الأماكن التي ذكرها الشاعر هي الوطن، فكل من البقيعة، وبارما، والنهروان، وباجسري، والبقاع الخصيبة، والأراضي الواسعة... إلخ كل هذه تشكل موضوع الاغتراب؛ لأنها تشكل الوطن.

«فليس المكان إذن ذلك المعطى الخارجي المحايد، الذي نعبره دون أن نأبه به، وإنما المكان (حياة) لا يحده الطول والعرض فقط، وإنما خاصية (الاشتمال)، ما دمنا نجد في الاشتمال معنى اللباس، ومنه (الشّملة)، فالاشتمال تغطية وستر من ناحية، ومخالطة واندماج من ناحية أخرى، وكأني بالذين يدرسون الشخصية في معزل عن المكان والزمان، إنما يسلبونها شطرا ذا خطورة معتبرة في تحديد سماتها، وتشخيص سلوكها، وتحديد أهدافها ومقاصدها، إذ العزل المتعسف للفرد عن مكانه، من قبيل التجزئة التي قد تقبلها عناصر العلوم الطبيعية الدقيقة، وترفضها عناصر العلوم الإنسانية القائمة على الكلية و (الاشتمال)» [٤].

وإحساسه بالاغتراب جعله يحن للمدينة المنورة، وربما الاضطرابات السياسية والفساد الاجتماعي في بغداد دفعه لتذكر المدينة المنورة، مدينة

(١) النهروان: هي بقعة واسعة بين بغداد وواسط، المصدر السابق ٥/ ٣٢٥.

(٢) باجسري: بليدة شرقي بغداد، بينها وبين حلوان على عشرة فراسخ من بغداد، المصدر السابق ١/ ٣١٣.

(٣) القسيم: الذي يقسم الأشياء بين الناس، كما ورد في الديوان ص٤٦٣.

(٤) فلسفة المكان في الشعر العربي قراءة موضوعاتية جمالية، د. حبيب مونسي، ص ١٨.

النبي صلى الله عليه وسلم، وما كانت عليه الأمة الإسلامية من ترابط ووحدة، فهو يحن للعقيق، وإلى العيش في هضباته، ويشتاق لشربة ماء من عيونه، ويحن لأهله وناسه الطيبين، يقول(١):

رأتْ بارقا نحو (العقيق)(٢) فحنَّتِ ... وذكرها الشوق القديمَ فأنّتِ

تمنَّتْ رقيقَ العيشِ في هضباته ... وليسَ لها منْ عيشِها ما تمنَّتِ

وحنَّتْ إلى ماءِ العقيقِ وأهلهِ ... حنينَ التي عَنْ طيّبِ العيشِ زلّت

على أنها الأيامُ إنْ هيَ عقّدتْ ... نعيمًا على قومٍ أعادتْ فحلَّتِ

وعندما يكون المكان هنا معادلاً للحياة وما بها من الصعاب، فقلبه يقفز من صدره من شدة الشوق عندما يتذكر ذلك المكان، ويتذكر أيامه الخوالي فيقول(٣):

يقولونَ: في أرضِ الجزيرةِ(٤) مغنمٌ ... ورقةُ عيشٍ في المكاسِبِ والشعرِ

فقلتُ: و(بارمّا) ومن دونِ قطعِه ... سباعٌ وأعرابٌ أولو قضبٍ بترِ

وقطعُ قفارٍ (بالبقيعةِ)(٥) كلّما ... تذكرتُها طارَ الفؤادُ عن الصَّدرِ

وهنا يذكر الأحنف صفات (عكبرا) وأهلها ليظهر بشكل خفي ما يعاني منه في الغربة، فلا معروف ولا فضل يقدم له من أحد، كما لا ينسى الفخر

(١) ديوان الأحنف، ص ١٤٠.

(٢) العقيق: وادٍ في المدينة تغنى به الشعراء كثيرًا، كما ورد في الديوان ص١٤٠.

(٣) ديوان الأحنف، ص ٢٢٥.

(٤) الجزيرة: هي التي بين دجلة والفرات مجاورة الشام. كما ورد في الديوان ص٢٢٥.

(٥) النقيعة بالنون: أرض تنبت الشجر بين بلاد بني سليط وضبة، وفي الأصل المخطوط بالباء. كما ورد في الديوان ص٢٢٥.

بموطنه الذي أضناه الشوق له فيقول[١]:

كفَى (عكبَرا) فخراً بأنك شيخها وأنهضُ أهليها لرد المظالِم

وأحزمُهم رأياً إذا ما رزيَّةٌ دهَتْ وألمتْ من خطوبٍ عظائم

وعندما يشعر بالخذلان من أصحابه في ساعة الضيق، ويمزقه الإحساس بالضياع فلا بد أن يحس بغربته بينهم، وإن ذلك سيضاعف في نفسه لهيب الغربة والألم، يقول[٢]:

ولي في (عُكبَرا) إخوانُ صِدقٍ توافوا لي بأخلاقِ الظّرافِ

كَلامٌ طيبٌ وسلامُ سلمٍ رضَوا لي في الهديَّةِ بالكفافِ

ضياعُهم الكرومُ[٣] وهُمْ كِرامُ على التأكيدِ في لفظِ الخلافِ

فأيامُ الكُساحِ يقاربوْني ويمتنعُون أيامَ القطَافِ

وعلى الرغم مما لاقاه الأحنف من تنكر الناس له، وإحساسه بغربته بينهم، ظل وطنه همه الأول، فالوطن هو العزة والكرامة بالنسبة للشاعر، «قيل لأعرابي ما الذل؟ فقال التنقل في البلدان، والتنحي عن الأوطان» [٤].

وهكذا نجد بكاءه المر، وإحساسه بالاغتراب والقلق، ونرى أشواقه مع هبوب كل نسيم، ولا يملك إلا أن يدعو ربه[٥]:

---

(١) ديوان الأحنف، ص ٤٩٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٦٧.

(٣) الكروم: أشجار العنب. واحدة كرمة، كما ورد في الديوان ص٣٦٧.

(٤) المحاسن والأضداد، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ، ١/ ١١٨.

(٥) ديوان الأحنف، ص ٣١٣.

وإلى اللهِ أشـــتكي طـــوْلَ شـــوقي واغترَابـــي وللغريـــبِ ارتمـــاضُ[١]

«ولقد أحب العربي وطنه وكان يشعر بالحنين الدائم له، وللحياة فيه، وهو وإن عرف بالترحل والتنقل بسبب البداوة، إلا أنه كان يحن إلى وطنه، ولا ينسى موطنه القديم» [٢].

والشوق لم يكن لـ(عكبرا) فحسب، بل لكل مكان عشقه وعاش بـه، وترك به جزءا من حياته، فحمص كبغداد، فكلتاهما قد أضنتاه شوقًا وحنينًـا حيث يقول[٣]:

جـرى دمعـي منْهـا ارتياحًـا وصـبوةً إلى (حمـصَ) يسـتدعيْه منْهـا نعيمُهـا

ويرتـاحُ قلـبي نحـوَ بغـداذَ للـهَوى لشـتانَ إذْ ضَـمَّ الحبيـبَ حريمُهـا

وإنّـي لأسـتهدِي الشـمالَ سـلامهمْ ويـنعشُ قلـبي حـينَ يـأتِي نسـيمُها

والحنين والشوق كان للوطن وللمكـان، وللـدار وللـزرع، وللأهـل وللأصحاب وللمعاملة الحسنة وللأخلاق الفاضلة، فالغربة جعلت من الأحنف محروما، فوحدة موحشة، ووطن مفقود، وثوب رث وحيد، ولعل أكثـر مـا يشده في أثناء اغترابه، في هذا العصر، أحبته ورفاقه؛ لأنه يـرى أن شـر البلاد بلاد لا صديق بها، ويعلن ذلك صراحة حيث يقول[٤]:

وحيـدًا لـيسَ لـي في النَّـاسِ خلـقٌ ألـــوذُ بـــه لأنـــسٍ أو وصـــالِ

ولا أهـــلٌ ولا ولـــدٌ يرجّـــى ومـــا أنفـــكُّ مـــن ثقـــلِ العيـــالِ

(١) ارتماض: قلق وتوجع وحزن، كما ورد في الديوان ص٣١٣.

(٢) الغربة في الشعر الجاهلي، عبد الرزاق الخشروم، الناشر: اتحاد منشورات العرب، دمشـق -١٩٨٢، (ت-ط) ص٣٩.

(٣) ديوان الأحنف، ص ٤٦٢.

(٤) المرجع السابق، ص ٤٠٩.

ولا وطـــــنٌ ولا دارٌ وكـــــرمٌ[١] ولا زرعٌ بســـــبخٍ[٢] أو دوالـــــي[٣]

ولا مـــالٌ ولا ثـــوبٌ ســـوَى مَـــا علـــى جســـدي لبـــذلِي[٤] والجمـــالِ

فالمتأمل للأبيات السابقة يلاحظ مدى الغربـة والألـم الـذي يعتصـر الشاعر، فبدأ القصيدة بقوله (وحيدًا)، وهذه الكلمة تحمل في طياتها الكثيـر من معاني الغربة، ثم انتقل لتفصيل اغترابه بقوله: (لا أهل)، (ولا ولد)، (ولا وطن) ... إلخ، فقد حشد لنا ألفاظًا معبرة عن وحدته واغترابه.

وقد عانى من الوحدة وفقدان الرفيـق والصـديق، والناصـر وأهـل العشيرة، فازدادت همومه وتراكمت عليه، فما من مجير له أو مدافع عنـه، إلا أن الشيء الوحيد الذي يخفف عنه ألم الغربة هو إيمانه بقضاء الله، وأن دوام الحال من المحال، حيث يقول[٥]:

وإنّـــي وإنْ أصـــبحتُ في دارِ غُربـــةٍ وحيـــدًا ومـــالي ناصِـــرٌ وعشـــيرُ

ولا تتخطّـــانِي[٦] الهُمـــومُ ولا أرى مجـــيرًا[٧] ولا يـــأوي إلـــيَّ مُجـــيرُ

فمـــا أنـــا مِمَّـــنْ يمـــلأُ الأمـــرُ قلبـــهُ لعلمِـــي بـــأنَّ الـــدائراتِ تـــدورُ

(١) الكرم: شجرة العنب ويطلق على البستان،. كما ورد في الديوان، ص ٤٠٩.

(٢) السبخ: الأرض التي تعلوها الملوحة، ولا تكاد تنبت إلا بعض الشجر، كما ورد في الديوان، ص ٤٠٩.

(٣) الدوالي: جمع دالية وهي عنق بسر يعلق فإذا أرطب أكل، كما ورد في الديوان، ص ٤٠٩.

(٤) البذلة والمبذلة من الثياب، ما يلبس ويمتهن ولا يصان، كما ورد في الديوان، ص ٤٠٩.

(٥) ديوان الأحنف، ص ٢٤٦.

(٦) تتخطاني: تتجاوزني، كما ورد في الديوان، ص ٢٤٦.

(٧) مجيرًا، أي يؤمنني مما أخاف وأكره، والمجير هو الذي يمنعك ويجيـرك. كمـا ورد فـي الديوان، ص ٢٤٦.

وهذه الغربة ليست اختيارية، فقد أُكره عليها إكراها[١]:

وفارقتُ منْ أهواهُ كُرهًا كأنني ... أجودُ بنفسي عندَ فرقتهِ قهرَا

ولمْ أرَ مثلَ البينِ أفتلَ للفتَى ... ولا كالهوَى حُلوًا إذا ذقتهُ مُرَّا

وسمتُ[٢] الثرى بالدَّمعِ حتَّى كأنما ... سِماكيَّةٌ[٣] رشَّتْ على عطشٍ قَطْرَا

فيا قلبُ صبرًا ما استطعتَ ومنْ يُطقْ ... على فقدِ من يهوَى وهجرانِه صبرَا

وإن كانت الكدية صعبة ومؤلمة فالبعد قاتل، فكيف إذا اجتمع البعد مع الهرم، وتساقط الأسنان يقول[٤]:

فلوْ أبصرنا الخشنيُّ[٥] ... كالآطامِ[٦] في الخُلدِ

بِهَا ليلٌ بني الغُربةِ ... في الأعشاشِ كالأسدِ

وقد عُدنا منَ الكديةِ ... مقتولينَ بالبعدِ

يحيّي بعضنا بعضًا ... إذا ماتَ منَ الدَّردِ[٧]

ويشكل العامل الاقتصادي سببًا قويًّا من أسباب الغربة التي عانى منها

---

(١) ديوان الأحنف، ص ٢٣٥.

(٢) سمت الثرى: أثرت في الأرض، كما ورد في الديوان ص٢٣٥.

(٣) سماكية: سحابة منسوبة إلى نوء السماك، وهو نجم معروف قل ما تخلف فيه الأمطار، كما ورد في الديوان ص٢٣٥.

(٤) ديوان الأحنف، ص ١٦١.

(٥) الخشني: الذي لا يسأل ولا يكدي، وهو عند المكدين عيب كبير. كما ورد في الديوان، ص ١٦١.

(٦) في الأصل، كالأطم وبه يختل الوزن. الأطم: القصر، وكل حصن مبني بحجارة، وكل بيت مربع مسطح، كما ورد في الديوان، ص ١٦١.

(٧) الدرد: ذهاب الأسنان، كما ورد في الديوان ص١٦١.

الشاعر في هذا العصر؛ لأنهم يقولون: (من لم يرزق ببلدة فليتحول إلى أخرى)، ومن هنا طاف كثير من الشعراء في الآفاق بحثًا عن الحياة الكريمة، وهربًا من ذل الحاجة، وقد عبر الأحنف العكبري عن غربته التي قضاها ساعيًا وراء رزقه، فرأى الغنى في القناعة، والراحة في الاستقرار(١):

إنّي سمعتُ بقومٍ أوطنوا هجرًا(٢) والدَّومتينِ(٣) وطابتْ عندهُمْ هجَرُ

باعوا المنازِلَ والأوطانَ وانتقلُوا سوءُ الجوارِ جلاهُمْ بعدَ ما صبروا

تقدَّسَ اللهُ فالأرزاقُ قد قُسمتْ ما حمَّ(٤) آتٍ ومَا لمْ يقضِه عسرُ

ويدفعه الشوق إلى كثرة البوح والبكاء إثر صاحبته الراحلة التي لا يرى العيش حلوًا بدونها، ولا العراق عامرًا إذا لم تكن فيه، ولعل فراقها بلغ منه مبلغًا لم يعد معه شاعرًا متأملاً، يهتم بالصورة والتركيب، إذ جاءت بعض بكائياته قريبة من الكلام العادي حيث يقول: (٥):

دعوهُ يبكي لفقد خلانه وهجرِ أحبابِه وأخدانهِ

جيرانهُ أوحشُوا منازلهُ فظلَّ يبكي لفقدِ جيرانِهِ

أشجانُهُ قيضَتْ لهُ تلفًا فصارَ يدعى قتيلَ أشجانه

وحين تتحول العنكبوت لمعادل موضوعي للشاعر، نستطيع أن نقدر مدى الألم الذي يكابد صدره من فقدان الوطن، وعندما يقارن نفسه

(١) ديوان الأحنف، ص ٢٦٢.

(٢) هجر: ناحية البحرين كلها هجر، كما ورد في الديوان ص٢٦٢.

(٣) دومة الجندل، ودومة غوطة دمشق، كما ورد في الديوان ص٢٦٢.

(٤) حُمَّ: قدّر وقضي، كما ورد في الديوان ص٢٦٢.

(٥) ديوان الأحنف، ص ٥٠٤.

بالخنفساء ويحسدها لما لديها من الأهل والأصدقاء، نستطيع أن نشعر بمرارة الغربة والألم الذي يكتوي صدر شاعرنا؛ لفقده الأصحاب والخلان[١]:

العنكبوت بنتْ بيتًا على وَهنٍ ... تأوي إليهِ ومالي مثله وطنُ

والخنفساء لها منْ جنسها سكنٌ ... وليس لي مثلها إلفٌ ولا سَكنُ

ويزداد الاغتراب عمقًا إذا ابتعد الشاعر عن موطنه، فنراه يقول[٢]:

أقمتُ (بجُنبلا)[٣] عشرين يومًا ... وكنتُ وردتهُا فوقَ اليفاعِ

فكادحتُ الزمانَ أسًى وضرًّا ... مُضاع الحظِّ ذا أدبٍ مضاعِ

أذودُ النفسَ عن كرم وجود ... وأخفِضُ هامتي بعد ارتفاعِ

أقاربُ أهلَها وأزيلُ طبعي ... إلى لؤمِ المروءةِ والطباعِ

ولولا لؤمُهم لحفظتُ طبعي ... ولكن لستُ بالرجل المطاعِ

بلوتُ الناسَ في شرقٍ وغربٍ ... ورُمتُ العيش من كل البقاعِ

فلم أرَ في الزمانِ أخسَّ منهم ... وأروغَ في العيانِ وفي السماعِ

هجرتُ مكارم الأخلاقِ كرهًا ... لهم لما أبوا فيها اتِّبَاعي

كتمتُ بليّتي وكَظَمتُ غيظي ... وغيظ القلب من شرِّ المتاعِ

تركتُ لهم لذيذَ العيش كُرهًا ... وقنَّعني بقسمِهم اقتناعي

مخافةَ خلطة وقبيحِ ما هم ... عليه من الخيانةِ والخداعِ

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٥٣.

(٢) ديوان الأحنف، ص ٣٢٥-٣٢٦

(٣) جُنبلا: بلدة بين واسط والكوفة. كما ورد في الديوان ص١٢٥.

فالأحنف غادر مدينته (عُكبرا) إلى (جُنبلا)، وأقام بجُنبلا مدة عشرين يومًا، فلم يكن يشعر بالغربة المكانية فقط، بل بغربة مركبة، فتداخلت الغربتان المكانية والاجتماعية، فقوله: (أقمت بجنبلا) هنا إشارة إلى الغربة المكانية، وقوله: (فكادحت الزمان أسى وضرًّا) هنا يصور مدى ألمه وإحساسه بالاغتراب، ويقول: (أذود النفس عن كرم وجود)، و (أخفض هامتي بعد ارتفاع)، فهنا قمة الاغتراب عندما ينسلخ الشاعر عن ذاته الأصلية، فهو يعاني من قهر الغربة، فأهل (جنبلا) يتصفون بلؤم طباعهم، ورداءة أخلاقهم، وهو إنسان عربي أصيل، متمسك بصفات العروبة من الكرم والجود، ويقول: (أقارب أهلها وأزيل طبعي إلى لؤم المروءة والطباع)، مما جعل الشاعر يشعر بالغربة، ويجاريهم بأخلاقهم، فهم أساؤوا معاملتي فتحولت إلى شخص لئيم، وقليل المروءة.

وقد وصل شاعرنا إلى مرحلة الشيخوخة، وكان يظن أن أحواله سوف تتغير وتتبدل، ولكن ظنه قد خاب، فقد أصابه الكبر، وهو ما زال يعاني من الاغتراب، يقول[١]:

كل يوم إلى ورا صرت أمشي كما ترى

ولشؤمي وحرفتي شخت في أرض (عكبرا)

وعندما يُسأل عن وطنه فإن تعلقه بوطنه يزداد، والعربي لا يستغني عن بلده أبدًا، مهما كان ذلك الوطن؛ لأن علاقته بأرضه علاقة سامية، وبينهما أنبل ما يكون من الحب، وبهذا المعنى يقول[٢]:

ومُسائلٍ حدبٍ عليَّ يقولُ لي بتودُّدٍ وتَعطُّفِ الإشفاقِ

(١) ديوان الأحنف ص٢٨٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٧٤.

مـــاذا دعَـــاك إلى المُقـــام (بعُكـــبرا) وعَـــدلتَ عـــن وطـــنٍ (ببـــابِ الطـــاقِ)
وتركـتَ (بـــابَ الكـــرخِ) وهـــو نهايـــةٌ في الحســـنِ فيـــه طرائـــفُ الآفـــاقِ
مـــن كُـــلِّ ذي أدبٍ علـــيمٍ فاضـــلٍ حَسَـــنِ الخلائـــقِ طـــاهرِ الأعـــراقِ
قلـتُ : اكتسـبتُ بهـا اعتبـارًا نافعًـا وعرفـتُ وجـــهَ مســـاوِئِ الأخـــلاقِ
فعـــدلتُ عمَّـــا قـــد عَرفـــتُ طريقـــهُ مِـــنهُم إلى خَلـــقٍ بـــلا أخـــلاقِ

وتشتد وطأة الاغتراب عندما يكون الشاعر في وطنه وبين أهله، وقـد عدلوا عن طلب العلم إلى اللهو والاستمتاع بملذات الدنيا، فيقول[1]:

(بغـــداذُ) دارٌ لأهـــلِ المـــالِ طيبـــةٌ وللمفـــاليسِ دارُ الـــذُّلِّ والضَّـــيق
سـكنتُ فيهـا بـأرضِ الخلـدِ في وطـنٍ لآلِ ساســـان في قـــومٍ مـــداليقِ(٢)
في مـــدةٍ حَلَفـــتْ فيهـــا الســـماءُ لنـــا أن لا نـــرى الشـــمسَ فيهـــا رأي تحقيـــقِ
فأقسـمَ الغـيمُ مـن حُـرفي ومـن نَكَـدي أن لا يُفتَّـــرَ عـــن غمِّـــي وتَعـــوِيقي
دارُ النعـــيمِ ولكـــن أهلُهـــا عَـــدلُوا عـــنِ العلـــومِ إلى ســـخفٍ وتصـــفيقِ
أمسـيتُ فيهـا مضـاعًا بـين سـاكِنِها كـــأنَّني مُصـــحفٌ في بيـــتِ زنـــديقِ

فبغداد هي عاصمة الخلافة، فهي رمز من رموز الحضـارة والرقـي، وقد تأثر أهلها بالحضارات والثقافات المختلفة، فهي لا تناسب الشاعر فهـو رجل فقير وبسيط، فالمعيشة في بغداد في غاية الصعوبة بالنسبة للشـاعر، وعبر عن عمق إحساسه بالاغتراب في قوله:

أمسـيتُ فيهـا مضـاعًا بـين سـاكِنِها كـــأنَّني مُصـــحفٌ في بيـــتِ زنـــديقِ

(١) ديوان الأحنف ، ص ٣٧٢.
(٢) مداليق: متقدمون كما ورد في الديوان، ص ٣٧٢.

وتعلو صرخات الاغتراب إذا ابتعد عن موطنه، فقلبه وعقله مع وطنه، يقول[١]:

كفى عجبا أني مقيم ببلدة وقلبي بأخرى مستهام(٢) ومولهجُ

وحسبك من ضر وبؤس بمن سرى غريبا فريدا مفلسا وهو أعرجُ

وهكذا نلحظ أن الأحنف العكبري قد وقف أمام الاغتراب المكاني وقفات مطولة عبر فيها عن صورة الوطن في ذاته، كما عبر عن أحاسيسه ومشاعره، تجاه الأهل والأحبة بأساليب شعرية متقاربة، ولغة شعرية بسيطة، مشحونة بألم الاغتراب والمعاناة، ومفردات نابضة بالشوق والحنين والحزن، فالتجربة الاغترابية وهموم الغربة وأوجاعها التي عايشها شاعرنا في هذا العصر دفعته للتمسك بالوطن.

الاغتراب الزمانِي:

إن العوامل السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، في العصر العباسي، كان لها الدور الفاعل في إبراز ظاهرة الاغتراب عند شاعرنا الأحنف، كما وضحت ذلك في الفصل السابق.

وفي هذين المبحثين سوف أتحدث عن الاغتراب الزماني في شعر الأحنف العكبري، فالاغتراب الزماني تتضح معالمه داخل الوطن، وقد عبر كثير من الشعراء عن اغترابهم وهم في ظل أوطانهم، وفي ذلك يقول (عبده بدوي): «الاغتراب يمثل نزوحًا من نوع آخر، حتى ولو كان الإنسان يعيش

---

(١) ديوان الأحنف، ص١٤٧.

(٢) قلب مستهام: هامَ يهيمُ هُيامًا، واستهيم فؤاده، فهو مُستهَامُ الفؤاد أي مذهبه. ورجل هيمان: محب شديد الوجد. لسان العرب، م/ ١٢، ص ٦٢٦، هيم. ملهج: مُولعٌ به، لسان العرب، م/ ٢، ص ٣٥٩. لهج.

في الوطن، فهو يرفض أشياء ويتحداها، ويختلف مع أكثر من أسلوب سيطر على الحياة، وإذا كان في بعض الأحيان لا يملك إلا الصمت، فإنه في أحيان أخرى لا يملك إلا أن يصرخ، أو يبوح، أو يئن، مع إحساس ضاغط بأن العالم من حوله لا يحس به، ولا يصغي للصراخ، والبوح والأنين، وفي ظل هذا يحس بالاختناق» [١].

وقضية الزمن وما تحمله من أحداث ومصائب قضية تؤرق الإنسان، فهي تتصل بحياته، فهو يمر بمراحل عمرية مختلفة، أولها الطفولة، ثم الشباب، ثم الشيخوخة والكبر، فكلما تقدم الزمن اقترب أكثر من نهايته، وهذا القلق والخوف صوّره لنا الأحنف في ديوانه من خلال حديثه عن الموت وعن أحداث الزمان، ومصائب الدهر.

(١) الغربة والاغتراب والشعر، عبده بدوي، دار قبا للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٨-٩.

المبحث الثالث: الشاعر والموت

يعد الموت مصير كل إنسان على وجه الأرض، والموت ظاهرة حتمية على الأحياء، وهو كثيرا ما يشغل فكر الإنسان ويقلقه.

وقضية الموت ارتبطت بالشعر منذ العصر الجاهلي، فقد عبر الشعراء عن إحساسهم تجاه الموت، وما يعتريهم من خوف وقلق نحو مصيرهم المجهول، وكما يقول عبد الناصر هلال: «وارتبطت قضية الموت بالشعر أكثر من أي فن من فنون الأدب، فالشعراء نظموا قصائد منذ أقدم العصور تعبر عن قلقهم وخوفهم من الموت، أو التأمل فيه وإحساسهم بقدومه وطالما أن الشعر هو انعكاس الحياة على نفس الشاعر، فعالم الشاعر نسخة من نفسه المتشتتة، ومن طبع الشعراء أن يفرغوا بالكلمة شحنة المكبوت في النفس، فهم أقدر الناس تعبيرًا عن إنسانيتهم أمام الموت» (١).

وعندما تتراءى صورة الموت أمام المرء، ويشعر أن الفناء سيقضي عليه، وأن جسده سوف تأكله الديدان، كما يقول العكبري(٢):

كلْ قبلَ أن يأكلكَ الدودُ وأنتَ في الحفرة ملحودُ

فالشاعر الذي يفكر في الموت، ويشعر أنه قد اقتربت نهايته، فإن الإحساس بالموت يطغى على مشاعر السعادة لديه، وتثور في نفسه انفعالات متناقضة، إنه يخشى الموت، ويرغب في الحياة، ويشعر أنه لم يرتوِ من الحياة، وربما يكون خوفه من الموت ما هو إلا حبٌّ في الحياة وتمسكًا بها.

---

(١) ينظر: تراجيديا الموت في الشعر العربي المعاصر، د عبد الناصر هلال، الناشر: مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٥. (د، ت) ، ص ١٧.

(٢) ديوان الأحنف، ص ١٧٥.

وليس هناك من يسلم من الموت كما يقول الأحنف[١]:

هـيَ الـدَّارُ لم تضـمنْ لحـيٍّ سـلامة ... مـنَ المـوتِ والمكـروهُ مِـن نكباتِهـا

هـي الـدَّارُ أفنـتْ معشـرًا بعـدَ معشـرٍ ... تباعًـا سِـراعًا وهـيَ في مهلاتِهـا

هـي الـدَّارُ حقًّـا أمَّنـتْ أهـلَ حربِهـا ... وفي سـلمها حـربٌ لكـل دُعاتِهـا

هـي الـدَّارُ حقًّـا أتعبـتْ مـن أرادَهـا ... وعـادَت عَلـى مـنْ نالَهـا بسـماتِها

هـي الـدَّارُ إنْ لمْ يـرحمِ الله تقتضِـي ... عقابًـا لِمـنْ أومـى إلى شـهواتِها

ففي الأبيات السابقة يوضح لنا الأحنف رؤيته للحياة، فلا أحد يملك ضماناً من الموت، ولا سلامةً من المصائب والنكبات التي تكدر صفو الحياة، فها هي مشاعر الاغتراب تتأجج في نفس الشاعر، فنجد في ألفاظه ما يوحي بالغربة كقوله: «الموت، المكروه، حرب، أفنت، عقابًا»، وأيضًا نرى تكرار كلمة (هي الدار) لتأكيد حقيقة الحياة.

وأن ما يواجهه الشاعر من ظلم اجتماعي وواقع مرير، زج به في غياهب الاغتراب، فمع تقدم السن والكبر يحتاج الإنسان إلى الاستقرار والشعور بالأمان، ولكن ذلك لم يتحقق للأحنف، فالكبر والفقر والمرض ظلت ملازمةً له، وإذا كان الأحنف يشعر بوحشة غربته وهو يتمتع بقوته، فإن هذا الشعور يبلغ أقصاه عندما يكبر ويدنو أجله فيقول[٢]:

ولَـي حـديثٌ سـأبديْه وإن قصـرتْ ... يـراعتي عـن مطامـاتِي(٣) مـنَ الألَـمِ

---

(١) ديوان الأحنف ، ص ١٣٣.

(٢) المرجع السابق ، ص٤٨٠.

(٣) مطاماتي: المطَمَّة: كمُعظَّم: المطَوَّلُ. القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي، ت: مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط٨، ص ١٢٤٩.

علـــوُّ سِـــنٍّ وإفـــلاسٌ ومغربـــةٌ مـع مـا دهيـتُ بـه في السـاقِ والقـدَم
طـورًا أعـافَى وطـورًا أشـتكي سـقمًا والمـوتُ يكمـنُ بـين الـبردِ والسـقَم
والعـيشُ في زمـن أهلـوهُ قـدْ عـدلُوا إلى المـذاقِ وسـوءِ الظـنِّ والـبرمِ(١)

فالواقع الذي عاشه الأحنف، وما فِيه من فقر واغتراب ومرض، دفـع بهيمنة الموت على تفكيره، فقد افتقد من يخفف عنه ألمه وغربته، فهو يرى أن هذا الزمن لم يعد مناسبًا له.

ولعل أكثر ما يُظهر الألم من الغربة والاغتراب هو المرض والمـوت، ففي المرض يحتاج الزوجة التي تسهر، والصديق الذي يزور، وفي المـوت يفقد الأهل والأصحاب، ويصور الأحنف ذلك فيقول(٢):

فمتـى مرضـتُ فخـادِمي نفسـي فـإنْ عَجَـزَتْ تولاَّهـا بنـو أشـكالي
ومتَـى أمـتْ فجنـازتي محفوفـةٌ بالُمـدْلِقِيْنَ لأنهـم أمثـالي
مـن لـي يُعـزي إنْ هلكـتُ ولم يَـدَعْ صـرفُ المنـونِ علـيَّ مـن عمَّـالي

والحياة تسير على وتيرة واحدة، ليلٌ ويعقبه نهار، وعمـر الإنسـان محدود، فلا تحزن لفوات أمر، فالحياة أشبه بلعبة القمار، كما يصـور ذلـك فيقول(٣):

حياتُـك ليـلٌ كلُّهـا ونهـارُ وعمـرُك فـانٍ والشـبابُ مُعـارُ
فـلا تعتقـدْ همًّـا لفـوتِ عطيَّـةٍ حياتُـكَ فـوتٌ والمعـاشُ قمـارُ(٤)

(١) البرم: السأم والضجر، كما ورد في الديوان. ص٤٨٠.
(٢) ديوان الأحنف، ص ٤٣٥.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٣٢.
(٤) لا تعتقد: لا تجمع الهم في نفسك، القمار: هو أن يأخذ من صاحبه شيئًا فشيئًا في اللعـب، كما ورد في الديوان.

إذا أجـــدبت أرضٌ فـــدعهَا لأهلـــهَا ففـــــي كـــــلِّ أرضٍ للمُحَـــــوِّلِ دارُ

فنرى أن الشاعر العباسي أطال التفكير في ذاتـــه ومصـــيره، متـــأثرًا بالحضارات المختلفة والثقافات المتشعبة، فالإحساس بالغربة وقضية الموت ملازمان له، وهذا ما نلحظه في نصوص الأحنف حيث يقول(١):

قـــد صـــحَ العقـــلُ والتمييـــزُ والنظـــرُ أنَّ المُنـــــى غـــــرٌّ والمـــــوتُ مُنتظـــــرُ

هـــذا يقـــينٌ وهـــذا ربَمـــا حجَبَـــتْ عنـــهُ الخُطـــوبُ وصـــرفُ الـــدَّهرِ والحـــذرُ

فخـــذْ مـــن الـــدّينِ والـــدُّنيا بمقـــدرةٍ جهـــدَ المقِـــلِّ إذا مـــا أمكـــنَ القـــدرُ

«وقد أرّق الموت بال الإنسان، وشغل تفكيره المصيرُ المحتوم الـــذي أثار في أعماق نفسه المضطربة تساؤلات حائرة عن جدلية الموت والحياة، وسر الفناء، وغاية الزوال، وقد عبـــرت ثقافـــات الشـــعوب، وفلســـفاتها، وأساطيرها عن قضية الموت بمستويات مختلفة، ونقلت كثيرا من التصورات عن طبيعة العدم والبقاء، وكان الشعر من بين الفنون الإبداعيـــة قـــد حـــل خطرات فكرية، وتأملات ذهنية أطلقها الشعراء تعبيرا عن حقائق الوجـــود، وبانوراما الحياة والفناء» (٢).

وإذ تأملنا الحياة فما هي إلا موت إنسان وميلاد آخر، كما عبر عنـــه العكبري(٣):

مـــا أعجَـــبَ الـــدُنيا وأطـــرَفَ أمرِهـــا حـــيٌّ بمـــوتُ ونطفـــةٌ تســـتودعُ

هـــذا يمـــوتُ وذاكَ يولـــدُ بغتـــةً فـــالموتٌ يحصـــدُ والهـــيمنُ يـــزرعُ

(١) ديوان الأحنف ، ص ٢٣٣.

(٢) خطاب الموت في الشعر الجاهلي، أحمد الحسين، مجلة نزوى، مؤسسة عمـــان للصـــحافة والنشر، ص ٦، http:/ / www. nizwa. com

(٣) ديوان الأحنف، ص ٣٣٠.

والمـــوتُ شـــخصٌ والمنايَـــا لجّـــةٌ والمـــوتُ يخفـــضُ والمنايـــا ترفـــعُ

ففي الأبيات السابقة يتعجب من حال الدنيا، فهي لا تدوم علـــى حـــال فدوام الحال من المحال، فكل حي سيموت ويبلى، فهذا تنتهي حياته بالموت، وهذه النطفة يبدأ ميلادها وهكذا هي الحياة، ونلاحظ تكرار لفظ الموت؛ مما يحمل دلالة التأكيد على حتمية الموت وإيمان الشاعر به.

فالشاعر حينما شبه الموت بالقلادة التي يرتديها الإنسان فـــي عنقـــه، بقوله(١):

أيـــنَ الفـــرارُ مـــن المنيـــةِ أيـــنَ لـــي لا أيـــنَ، وهـــي قلائـــدُ الأعنـــاقِ

أنـــى توجـــه هـــاربٌ مـــن ريبهـــا كانـــت لـــهُ كعقائـــدِ الأعنـــاقِ

لا الطفـــلُ يســـلمُ مـــن ســـهام قِسـِـيِّها والشـــيخُ تزعجـــهُ علـــى إرهـــاقِ

هـــي مـــوردُ الإنســـانِ مصـــدرُ رِيِّهـــا حـــدثٌ يســـوقُ بـــه أشـــدَّ ســـياقِ

ولعل الفكرة التي تشير إليها الأبيات السابقة تؤكـــد حقيقـــة المـــوت، فالموت حقيقة ثابتة، وقضاء مقدر للصغير والكبير، لا مهرب ولا مفر منه، والعكبري كان مدركًا لهذه الحقيقة، وكان على يقين بأن الموت منهل يـــرده الجميع.

وموقف الشاعر من الموت لم يكن ثابتًا، فنجده أحيانًا يصور خوفه من الموت، وفي بعض النصوص نجد له موقفا آخر، يبدو من خلاله وقد ضـــاق بالحياة، ويشكو من صروف الزمان، وأنه يتمنى الموت، فـــأرى أن هنـــاك علاقة بين الموت والفقر والظلم، فالأحنف عنـــدما أصـــبح أســـيرًا للفقـــر والحرمان، دفعه ذلك لتمني الموت، ولكن لنفرض أن الأحنف يعـــيش حيـــاة

(١) ديوان الأحنف، ص ٣٩٤.

مترفة، وله مكانة اجتماعية عالية، فهل سيتمنى الموت؟ اعتقد لا، فالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المزرية، هي ما دفع الشاعر للاغتراب الاجتماعي والنفسي، ونجد ذلك في قوله(١):

صُروفُ الليالي صيَّرتني كما ترى ... أدبُّ دبيبَ السخلِ(٢) ساعةَ يولدُ

وألتمسُ الجدرانَ بالكفِّ والعَصَا ... وأحبو كما يحبُو الوليدُ المبلدُ(٣)

أؤدّي فروضي جالسًا بمشقةٍ ... عليَّ وبابُ البيتِ للخيرِ موصَدُ

ومنْ عاشَ مِنْ بعدِ الثمانينَ أربعًا ... تمنَّى ورودَ الموتِ والموتُ أجودُ

فلا يغترِرْ خلقٌ بعيشِ شبيبةٍ ... فليسَ على الأيامِ خلقٌ يخلَّدُ

جسد لنا في أبياته السابقة ما آل إليه، فحتى المشي أصبح صعبًا، فشبه نفسه بالسخل الذي يصعب عليه المشي، وفي قوله: «ألتمِسُ الجدرانَ بالكفِّ والعَصَا» فيه إشارة إلى ضعف نظره.

وفي قوله:

ومنْ عاشَ مِنْ بعدِ الثمانينَ أربعا ... تمنَّى ورودَ الموتِ والموتُ أجودُ

لعله قد عاد بنا إلى الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى حين قال:

سئمتُ تكاليف الحياة ومن يعش ... ثمانينَ حولاً لا أبا لك يسأمِ

فلابد للمرء أن يستغل اللحظات الجميلة في حياته، فربما أنها لن تتكرر، فللحياة قيمتها أمام الموت، وعندما يتعرض الإنسان للموت وينجو منه، ويعود للحياة ليعود للألم والمعاناة، مثل ما حدث للأحنف فها هو يصور

---

(١) ديوان الأحنف، ص ٢١٠.

(٢) السخل: ولد الشاة الذكر أو الأنثى، كما ورد في الديوان.

(٣) المبلد: الضعيف المتحير، كما ورد في الديوان ص٢١٠.

لنا تجربته[١]:

ولا تـــدعْ فرحًـــا إلا صـــرفتَ بـــه وجـهَ الهمـومِ فبـابُ المـوتِ ينتظـرُ

كـم مـرةٍ سـلَّ[٢] هـذا المـوتُ صـارِمهُ[٣] فاغتـالنِي ثـمَّ جـاءَ الـدَّهرُ يعتـذِرُ

أولَـى قبيحًـا وأولَـى بعـدَهُ حسـنًا هـذا وهـذا عَلـى ذَا مـرتِ السـيرُ

ثم يكتب وصيته الأخيرة ليدفنوه بعيدًا عن ضجيج الأصوات، فقد مـلَّ من الناس ومشكلاتهم وصراخهم، فقد اعتزل الناس في حياته، ويرغـب أن يعتزلهم بعد مماته، فلم يجنِ منهم إلا الألم والوجع، فيقول[٤]:

احفروا ليْ قبرًا إذا مِتُّ في الأرْضِ بعيـدًا مـن ضـجَّةِ الأصـواتِ

واكتُبـوا في صـحيفةٍ عنـد رأسـي بعـدَ دفـني في حُفرتـي ووفَـاتي

يـا غريبًـا قـد عـاشَ مـا عـاشَ فـردًا وخليًّـا مـن زوجـةٍ وبنـاتِ

وكـذَا قـد دُفنـتُ في الأرضِ نفيًـا مفـردًا مـن مقـابرِ الأمـواتِ

فلـكَ اللهُ راحمًـا ووليـا غـافرًا للـذنوبِ والسـيئاتِ

ونستطيع أن تستشف الحالة النفسية المتردية التي آل إليها الشـاعر نتيجة وضعه الاجتماعي المتدني، ونتيجة التهميش والإهمال اللذينِ سَـيَّجَاهُ في دائرة الفقر، والعوز، والحاجة، حيث يقول[٥]:

كَـمْ ميـتٍ حالفتـهُ وبُخسـتُ في أكفَانِـه

(١) ديوان الأحنف، ص ٢٣٣.

(٢) سل: انتزع وأخرج، كما ورد في الديوان.

(٣) الصارم: السيف القاطع، كما ورد في الديوان.

(٤) ديوان الأحنف، ص ١٤٢.

(٥) المرجع السابق، ص ٥١٥.

ودفنتـــــــهُ دفـــــــنَ الكِـــــــلاب بذلّـــــــه وهوانـــــــهِ

وأكلـــــــتُ مـــــــا ذخـــــــرت يَـــــــداه لجهلـــــــه بزمانِـــــــه

وتتكرر صورة الفقدان والتأبين في كل يوم، حيث يذهب للمقبرة حاملاً فقيده على كتفه ثم يعود بدونه، وهذا الفقدان يعطي شاعرنا الإحساس بالألم والغربة؛ لشعوره بالوحدة فنراه يقول(١):

نَـــزِفّ إلى المقـــابرِ كُـــلَّ يـــومٍ عَلـــى الأكتـــافِ نحتمِـــلُ السَّـــريرا

حميمًـــا أو حبيبًـــا أو غريبًـــا ونَـــدفِنُ في الثَّـــرى الشـــيخَ الكـــبيرَا

ومـــا تُبقـــي المنـــونُ علـــى صـــغيرٍ ولا تـــدعُ الغنَّـــي ولا الفَقـــيرَا

كـــأنَّهُمُ إذا سَـــكنُوا الحنَايـــا إذا فكـــرتَ مـــا ســـكنُوا القُصـــورَا

إذا عـــاش الفتـــى مائـــة وعشـــرًا وحُـــمَّ يقـــولُ: عشـــتُ مـــدًى قصـــيرَا

فـــإنْ فتشـــتَ عـــن فكـــرٍ دقيـــقٍ وجـــدتَ النـــاسَ أحيـــاءً قُبُـــورَا

فالموت يهدم حياة الشاعر لبنة لبنة، فيأخذ الأصدقاء ويبعده عنهم ويغيبه عمن أحب(٢):

المـــوتُ يهـــدمُ مـــا بَنـــاهُ الـــدَّهرُ مـــن بَعـــدِ العِمـــارهْ

وتجـــولُ فيـــهِ يـــدُ البِلَـــى بَعْـــدَ البَشَاشَـــةِ والنَّضَـــارَه

حتـــى تَـــرى الجســـدَ النضـــيرَ مـــنقلاً في كـــل تـــارَهْ

بَعْـــدَ الغَضَاضَـــةِ والمِلاَحَـــةِ مثـــل مَلقُـــوطِ الحِـــجارَه

(١) ديوان الأحنف، ص ٢٥٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧٥.

ولعل الإيمان بالقضاء والقدر هو ما يخفف عن شاعرنا هذا الألم الكبير للفقدان، فالموت محتم للجميع.

ولكن ذلك لا يمنع الشاعر من الاستغراب عندما يرى الإنسان يطرب ويثير شوقه ذكر الموت، فالموت بنظر الشاعر ألم وفراق، وغربة عن الحبيب والصديق فنراه يقول(١):

تعجبتُ مِنَ المرءِ وذكرُ الموتِ يشجيهِ
كما جددهُ الدهرُ كذاكَ الدهرُ يبليهِ
ومُفضِيه إلى الموتِ المُنى والحرصُ حاديهِ
وما قدم من فعلٍ جميلٍ فهوَ لاقيهِ
ومن قدمَ شَرًّا فيه فالجبارُ يجزيهِ

وهاجس الموت قد ساهم في إشعال جذوة الاغتراب لدى الأحنف وشعوره بالحزن والأسى، فالموت يأتي ألمه مضاعفا في الغربة، وكذلك الشعور بقرب الموت خاصة بعد بلوغه من الكبر، ويرى أن مجرد التفكير في الموت، هو موت في حد ذاته فيقول(٢):

الذكرُ للموتِ موتٌ والفكرُ في الموتِ فوتُ
والموتُ يمشي الهوُينا وليسَ للموتِ صوتُ

وأنه كلما مضى يوم من عمر الإنسان اقترب من الموت، وفي ذلك يقول(٣):

(١) ديوان الأحنف، ص ٥٣٥.
(٢) المرجع السابق، ص ١٣٢.
(٣) المرجع السابق، ص ٤٣٦.

أصبحتُ من رهفِ الأيامِ في عجلٍ ... ومن بكوري على الآمالِ في مهلِ

وكل يومٍ يوافيني يُعلمني ... أني من الموت في يومي على وجلِ

وعندما تصبح الحياة في نظر الأحنف كالشيْء المستعار الذي سيرد إلى صاحبه يومًا ما، يقول(١):

وما هذهِ الأيامُ إلا معارةٌ ... تمتع بها فالمُستعارُ رديدُ

ولا تعتقدْ فيها البقاءَ فإنها ... وإنْ بقِيتْ فالمستعيُر فقيدُ

وكلُّ جديدٍ أَخْلقتهُ يدُ البِلى ... فَرثٌّ لقومٍ قادمينَ جديدُ

وبيْن صروفِ النيَّرين عجائبٌ ... تنَاهى إليها العقلُ وهو بليدُ

فلا مُصعدٌ عنها ولا مُتسلقٌ ... إلى فوقِها إلا مداهُ بعيدُ

حياةٌ وموتٌ وافتراقٌ وأُلفةٌ ... ونحسٌ وسعدٌ والسَّعيدُ سعيدُ

وأسلوب الشرط في البيت الأول يؤكد لنا حتمية الموت، التي يتناساها كثير من الناس، فحب البقاء غريزة متأصلة في الإنسان، فالشاعر يرى أن الناس في غفلة عن الموت، فهذه الدنيا فانية، وكل جديد سيبلى مع الزمن، وصروف الدهر متقلبة، وجسد الأحنف إحساسه بالاغتراب من خلال المقابلة في قوله: (حياةٌ وموتٌ، وافتراقٌ وأُلفةٌ، ونحسٌ وسعدٌ).

فمن خلال ما استعرضنا من أبيات ومقطوعات، نستشف منها موقف الأحنف من الحياة، فنرى أن الموت قد هيمن على تفكيره، وقد لمسنا في أشعاره الاستسلام والرضا، فالموت يمثل قدرًا لا مفر منه، وهو مؤمن بالقدر، ونراه أحيانًا قد تجاوز الرغبة في الحياة إلى الرغبة في الموت.

(١) ديوان الأحنف ، ص ١٧٦.

المبحث الرابع: الشاعر وأحداث الزمان

إن قضية الزمن أو (الدهر) قد شغلت الشعراء منذ القدم، وأخذت مساحة شاسعة في أشعارهم، فهي تتصل بحياة الإنسان، وبمولده، وحركة حياته وموته.

«فالزمن غدَا كما عبرت عنه الدراسات العربية القديمة المبكرة قياسًا للعمر ومدة البقاء؛ في الوقت الذي صار تجربة اجتماعية مادية ونفسية، تنطوي على وعي لتعاقب الأحداث؛ ميلادًا وموتًا وربطها بالزمن الطبيعي...دون أن ينسى العرب مفهوم الزمن التاريخي لحظة واحدة...وفي ضوء ذلك اهتدوا إلى دورة الزمن التي لا تشكل في بداية ولا نهاية، وأطلقوا عليها مفهوم الدهر» (١).

«بعد فساد الأحوال السياسية في العصر العباسي أدى ذلك إلى الاضطراب، وإلى سوء الحالة الاجتماعية والاقتصادية، وشاعت الفتن والثورات، فلجأ كثير من الشعراء إلى شكوى الدهر في أبيات مستقلة، فاستقل هذا الفن الشعري وسمي بالدهريات، وهو شعر وجداني مرتبط بمكنون النفس وآلامها ومعاناتها، وهو شعر صادق لم ينظمه أصحابه رغبة في منصب أو تقربًا لحاكم، وقد كشف عن كثير من الدلالات النفسية والاجتماعية والسياسية، وألقى الضوء على الواقع الذي عاشته أمة الإسلام حينًا من الدهر» (٢).

---

(١) ينظر: فكرة الزمن في الدراسات العربية، حسين جمعة، مجلة التراث العربي، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق العدد ٨٦-٨٧ ربيع الآخر ١٤٢٣هـ، آب (أغسطس) ٢٠٠٢ السنة الثانية والعشرون.

(٢) موقف أبي العلاء المعري من الدهر، ٢٩حزيران (يونيو)٢٠٠٩، بقلم فرهاد ديو سالار، الشبكة العنكبوتية .

http:/ / www. diwanalarab. com/ spip. php?article18665

فالأحنف الذي عاش في ذلك العصر المضطرب، الذي رفعت فيه رايات الظلم والفساد، وتجرع منه كؤوس الحرمان والفقر، فكان لابد أن ينعكس ذلك على أشعاره، فصور لنا صراعه مع الدهر، ولم تكن هذه الشكوى المرة إلا وليدة للظلم، ولأحداث وأقدار خارجة عن إرادة الشاعر، فيطلب من الدهر أن يتمهل، فقد ذهبت القوة والعزيمة، وبات يصارع الشيخوخة فيقول(١):

صُلتُ(٢) على الدهرِ فلم يعبَ بِي ... ولا انثنى للتِّيهِ والصَّولِ

وقلتُ: يا دهرُ اتَّئد بعد ما ... شكوتُ فاسترجعَ في القولِ

لما رآني قد تخليتُ في ... أمري من القوةِ والحولِ

وعندما يكون الزمان كالحيوان المفترس في تصور الشاعر يقول(٣):

عضَّ الزمانُ على عودي فقومهُ ... عضَّ الثقافِ ألانَ الحدَّ جانبُه

صاحبتُ دهري بفكرٍ ثاقبٍ وعَنًى ... راقٍ إذا لَسَبتْ قلبي عقاربُه

كم مرةٍ رعتُ خوفًا من مخالبه ... وكم سَطَا فنَكَتْ قلبي مخالبُه

كأنَّني منه في بحرٍ تُلاطِمُني ... أمواجُه وتوافيني عَجائبُه

ما تبتديني بإحسانٍ مواهبهُ ... إلا تلتهَا بتنغيصٍ نوائبُه

لكلِّ أحوالِه عندي مغالبةٌ ... صبرًا وللموتِ خطبٌ لا أُغالبُه

فتشبيه الشاعر للزمن بالحيوان استعارة زادت المعنى عمقًا وثراءً، فعضة الحيوان مؤلمة موجعة، فكذلك أحداث الزمان والغربة مع الأحنف، فقد كان يرتعد خوفًا منه، ففي قوله: (كم مرة رعت خوفًا من مخالبه)، و (وكم

(١) ديوان الأحنف، ص ٤٤١.

(٢) صلت: سطوت وتطاولت، كما ورد في الديوان.

(٣) ديوان الأحنف، ص ١٠٣.

سطا فنكت قلبي مخالبه)، واستخدام كم الخبرية للدلالة على الكثرة والتعدد، فالمصائب والحوادث تتكرر في حياته، وأما في قوله: (كأنني منه في بحر تلاطمني أمواجه وتوافيني عجائبه)، في هذا التشبيه إيحاءٌ منه بكثرة المصائب والأحداث التي يصارعها، فكل المشاكل والأحداث تغلّب عليها بالصبر إلا الموت، فهو قدر لا مفر منه.

وعن تقلبات الدهر «قد نسب العرب إليه كل غدر وعاهة ومصيبة تلم بالإنسان، كما أنهم لا يبرحون يعاتبونه ويبثون شكواهم من أقداره...» [(١)] فنراه يقول[(٢)]:

قد أمنتُ الدهَر أن يقلبَ يومًا بك ما بي

إنما الدنيا حديثٌ بين عتبٍ وعتابِ

وحياةٌ وممات في بناءٍ وخرابِ

ويسارٍ وافتقارٍ واغترابٍ وإيابِ

كم رأينا من رفيعٍ حُطّ من بعدِ انتصابِ

وحقيرٍ ضربَ الدهرُ عليه بالحجابِ

ما على الأيامِ عتبٌ في مجيءٍ وذهابِ

إنما العَتْبُ على من زلَّ عن وجهِ الصوابِ

ويظهر من خلال الأبيات أن علاقته مع الزمن علاقة تنافر، فالمفردات المتناقضة توحي بعدم التوافق، فقوله: (حياة وممات- بناء وخراب -يسار

(١) الاغتراب في شعر أبي العلاء المعري دراسة موضوعاتية فنية، حياة بوعافية، رسالة ماجستير، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة، ٢٠٠٨-٢٠٠٩م، ص ٤٣.

(٢) ديوان الأحنف، ص ٩٨.

وافتقار -اغتراب وإياب-رفيع وحقير- مجيء وذهاب)، يفضي بالتوتر والغربة النفسية التي تسيطر على حياته.

وهو غير مؤمن بفكرة السعادة الأبدية، فكل يوم مختلف عن الآخر، فتارة حلوة عذبة، وتارة مرة لا تستساغ، إلا أن معظم الأيام التي يأتي بها الدهر تبعث الحزن فيقول(١):

ما كلُّ يومٍ له نظيرٌ ... فَخُذْ من الدهرِ ما استقاما

يومك في فرحةٍ كعامٍ ... تراه عامًا وليسَ عاما

سجيةُ الدهرِ أن توافي ... بكلِّ ما يشبهُ الظلاما

فصورة الزمن في نظر الأحنف يومان، فيوم عسير، ويوم يسير؛ لقول علي كرم الله وجهه: ((الدهر يومان، يوم لك ويوم عليك))، وهكذا هي الحياة، فلم تكن سوداء دائمًا فهي تحمل بصيصًا من الأمل(٢):

الدهرُ يومانِ يوم لا تسرُّ به ... وبعدهُ لكَ تفريجٌ وإيناسُ

يومٌ يسوءُ ويومٌ فيه مَفرَجةٌ ... وبينَ هذينِ ما قدْ يذهبُ الياسُ

ونجد العكبري شاكيًا من هذا الزمان الذي آلمه بحوادثه بقوله(٣):

ولما رمَاني الدهرُ فيمن أُحبُّه ... بسهم القِلى والدهرُ من شَأنه الغَدرُ

بكيتُ على نفْسي وقلتُ لها: اصبرِي ... فما للفتَى إلا التجلدُ والصبرُ

وقلتُ كما قد قالَ في الدهرِ قائلٌ ... نأى إلفُهُ عنهُ فحلَّ به الهجرُ

(عجبتُ لسعي الدهرِ بيني وبينها ... فلما انقضى ما بيننَا سكَنَ الدهرُ)

---

(١) ديوان الأحنف، ص ٤٩٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٠٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٧٨.

وكان العرب في جاهليتهم «يضيفون النوازل إلى الدهر، والنوازل التي تنـــزل بهم من موت أو هرم، فيقولون: أصابتهم قوارع الـــدهر وحوادثـــه، وأبادهم الدهر، فيجعلون الدهر الذي يفعله، فيذمونه ويسبونه»[١]، ولما جاء الإسلام نهى عن سب الدهر، لقول النبي صلى الله عليه وســلم:((لا تســبُّوا الدهرَ فإن الله هو الدهرُ))[٢]، ومع ذلك نجد أغلب الشعراء ينسبون الأحداث إلى الدهر، كما صور العكبري أن طبيعة الدهر الغدر والخديعة يقول[٣]:

دعِ الـــــدُّنيا فقـــــد غَـــــدَرتْ بـــــأقوامٍ بهـــــا وثِقُـــــوا

وكـــــانوا يجمعـــــون لهـــــا كـــــأنهُمُ لهَـــــا خُلِقُـــــوا

وقد عركته رحى الأيام وأذاقته التجــارب القاســية، وعــانَى الفقــر والحاجة، فلبس ثوب الحلم والصبر في مواجهتها، فنراه يقول[٤]:

عَركتْنِـــي الأيـــامُ عـــركَ الـــدابغِ فلبســتُ عنهـــا ثـــوبَ حِلـــمٍ ســـابغِ

وأرانـــيَ القمـــرانِ في كرَّيهِمـــا عِـــبرًا تَـــدقُّ علـــى اللبيـــبِ البـــالغِ

واستهل البيت بالفعل الماضي (عركتني) للدلالة على ماضيه الموجــع، وإحساسه بالغربة والألم.

ويقول متذمرًا من حاله[٥]:

كَفَـــى حزنًـــا مـــا أرى حـــلَّ بـــي مـــن الضُّـــرِّ في زمـــنٍ كابِـــت

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، ط٢، بيروت، دار العلم للملايين، ص ١٤٩.
(٢) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت، ٤/ ١٧٦٣.
(٣) ديوان الأحنف، ص ٣٧٧.
(٤) المرجع السابق، ص ٣٤٩.
(٥) المرجع السابق، ص ١٣٩.

ويصور حالته النفسية المتعبة حيث يقول[١]:

مراتبُ الدهرِ بأتعَاسِه ... تُغصِّصُ الحرَّ بأنفاسِه

لم يبقَ من مكروهِهِ غُصَّةٌ ... إلا سَقَانِيْها ومن باسِهِ

فالعكبري قد وضعنا أمام لوحة فنية روعة في التصوير والخيال، فقد جعل الحر يغص بنفسه ويا لها من غصة، فهي صورة تنضح بالألم.

فالأحنف الذي يشكو من حوادث هذا الزمان التي جعلته يمل العيش، ويتمنى الموت والخلاص من هذه الدنيا التي هي كلها مصائب، وهذا ما يظهر في قوله[٢]:

ما كنت أول محروبٍ تأكّله ... صرفُ الزمانِ فلم يضرعْ ولم يحلِ

فالموت أيسر عندي من مطالبتي ... نفسي بنيل الندى من باخلٍ نكلِ[٣]

إلا أن صنيع الدهر ربما يحمل بين طياته النفع في بعض الأحيان كقوله[٤]:

صنيعُ الدهرِ تفرقةٌ وجمعٌ ... ومن أفعالِه ضرٌّ ونفعُ

ويقول[٥]:

للدهرِ إدبارٌ وإقبالُ ... وكلُّ حالٍ معها حالُ

فصنيع الدهر يحمل كثيرًا من المتناقضات، (تفرقة وجمع، ضر ونفع، إدبار وإقبال)، فالتناقض سمة من سمات الدهر.

---

(١) ديوان الأحنف، ص ٢٩٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٤٨.

(٣) من النكل: وهو المنع والتنحية عما يريد. كما ورد في الديوان، ص ٤٤٨.

(٤) ديوان الأحنف، ص ٣٢٢.

(٥) المرجع السابق، ص ٤٣٥.

وفي تقلب الدهر عجائب، وهذا ما نراه في قول الشاعر[١]:

مـن يصـحبِ الـدهرَ يُبصـرْ مـن تقلُّبِـه أشـياءَ أصـغرها يـأتي علـى العجـبِ

ويقول أيضًا[٢]:

وفي طـيِّ هـذا الـدهرِ كـل عجيبـةٍ فمـن عـاشَ لاقتـهُ النهـى والعجائـبُ

فأحداث الدهر متقلبة ومتغيرة، فالمرء يمسي في حال ويصبح في حالٍ أخرى، فالدهر يحمل في طياته العجب.

وفي كثير من الأحيان يلتزم العكبري الصمت تجاه أحداث الزمان، حيث يقول[٣]:

مـا سُـكوتي عـن الزمـانِ لعـيٍّ نقـصُ حـالي أشـدُّ ذمِّ الزمـانِ

أيُّ حـالٍ أرقُّ مـن مثـلِ حـالي أيُّ خَلـقٍ يكـونُ في مثـلِ شـانِي

مفلـسٌ أحنـفٌ فقـيرٌ غريـبٌ آيـسٌ فاقـدٌ شـديدُ التـواني

إذا تأملنا هذه المفردات: (مفلس، أحنف، فقير، غريب، آيس، فاقد، شديد التواني) نجد أنها معبرة، فإحساسه ينزف بألم الغربة، فهذا الشاعر الذي عاش تحت وطأة الفقر، وعانَى الهوان والضيم، فانفجرت مشاعره بشكوى عارمة من قساوة الزمن وجوره.

كما أنه يتعجب من الذين يريدون الحياة ويطلبون العيش فيها، ويتمنون البقاء، فهو يدرك أن الدنيا زائلة وليس البقاء إلا لوجه الله تعالى، فيقول[٤]:

---

(١) ديوان الأحنف ، ص ١١٢.

(٢) المرجع السابق، ص ١١٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٢٣.

(٤) المرجع السابق، ص ٤٢٨.

أرى الـــدنيا تَبيـــدُ ومـــنْ عليهـــا ويبقـــى وجـــهُ ربِّـــك ذي الجـــلالِ

فـــلا تغـــترَّ بالدنيـــا فـــإني أرى الدنيـــا تصـــيرُ إلى زوالِ

ويقول(١):

وللـــدهرِ عـــلاتٌ فخـــذ منـــه عَفْـــوَهُ وإلا فكـــلٌّ في الصـــفاءِ عليـــلُ

وفي صحبة الدهر يقول(٢):

مـن كـانَ للـدهرِ خِـدْنًا(٣) في تصـرفهِ أهـدتْ لـه صـحبةُ الـدهرِ التجاريبـا

إن كـــانَ صِـــفرًا مـــن الآدابِ ســـربلهُ كَـــرُّ الليـــالي مـــع التجريـــبِ تأديبـــا

فالليل يعكس آلام المغترب النفسية، والشعراء غالبًا يلجؤون إلى الليل لبث معاناتهم وشكواهم، ففي قوله: (سربلهُ كَرُّ الليالي) استعار صفة الإلباس من الإنسان وألصقها بالليل.

وفي كثير من الأحيان يعتمد العكبري على الصبر لإيمانـــه بالقضـــاء والقدر فيقول(٤):

لا أشـــتكي الـــدهرَ لعلمـــي بمـــا يَخْفَـــى علـــى الجاهـــلِ مـــن قـــدرهِ

فهو ممن فهم الدهر وفهم تقلباته(٥):

ســـلوتكَ لا أنَّـــي علـــى الـــبينِ صـــابرٌ ولكـــن لعلمـــي بالـــذي الـــدهرُ صـــانعُ

ومـــن ذا الـــذي مـــن حـــادثِ الـــدهرِ ســـالمٌ ومـــن ذا الـــذي يحيَـــا إذا الـــدهرُ رافـــعُ

---

(١) ديوان الأحنف، ص ٤٥٣.

(٢) المرجع السابق، ص ١١١.

(٣) الخدن: الصديق، كما ورد في الديوان، ص ١١١.

(٤) ديوان الأحنف، ص ٢٤٤.

(٥) المرجع السابق، ص ٣٢٦.

فالعكبري قد استفاد من دروس الحياة، «إن تجربة الحياة غذت مخيلة الشعراء بمزيد من الأفكار التي جعلتهم في غاية الحذر من تلاعب الأقدار، وأيقظت في نفوسهم شعور الإحساس، وضرورة الالتفات لحركة الزمن في رقيب دائم، وعلى الرغم من المتابعة إلا أن الدهر لا يأمنونه، وينعت بالغدر وقلة الرحمة» (١).

فها هو يقدم نصيحة الصبر وعدم الانزعاج، حيث يقول فيها(٢):

لا تنزعجْ لنوائبِ الدهرِ فمتى انزعَجَت فمِل إلى الصَّبرِ

فالعكبري ممن صبر على زمنه(٣):

صبرتُ لصرفِ هذا الدهرِ لما شجيتُ به وأعوزني الوجودُ

ويقول أيضًا(٤):

عجبتُ لبيتٍ قاله بعضُ من مضى (إذا عضني دهرٌ عضضتُ على الصبرِ)

فمن عضَّهُ دهرٌ ولم يكُ واجدًا سبيلاً إلى صبرٍ يعضُّ على الدهرِ

يعضُّ على نظْراتِه وهو صاغرٌ وإلاَّ أتاهُ الموتُ من حيثُ لا يدري

ويقول أيضًا(٥):

خُذْ ما استوى لك من زمانِك واثبتْ لدهرِك في مكانِك

ويستغرب ممن يعيره بنوائب الدهر ومصائبه، محاولاً أن يقتلع نفسه

(١) ينظر: شكوى الدهر في الشعر الجاهلي، عارف عبد الله محمود، مجلة ديالي، العدد السابع والخمسون، ص ٦، ٢٠١٣.

(٢) ديوان الأحنف، ص ٢٣٣.

(٣) المرجع السابق، ص ١٩٠.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٨٧.

(٥) المرجع السابق، ص ٣٩٧.

من الألم فيقول[١]:

قُـل للـذي بصـروفِ الـدهرِ عيرنِـي هـل عانـدَ الـدهرُ إلا مـن لـه خطـرُ

وكان للشيب نصيب في شعر الأحنف «وكم تحدث الشعراء الكبار ذوو النفوس العظيمة، عن الشيب، بالنحيب الـذي تفضـحه الكلمـات فجـاءت قصائدهم أحرَّ التعازي، ورموا كلمات اللعن بوجه بياض الشعر» [٢]، فها هو العكبري يتحسر على شبابه الذي ولَّى فيقول[٣]:

لاحَ المشـيبُ فأبكـاني علـى زمـنٍ فيـه الشـبابُ أميرٌ غـير معـزولِ

فالطباق بين الشيب والشباب يوحي بالصراع النفسي لـدى الشـاعر، صراعٍ بين القوة والنشاط، والضعف والعجز، فالشيب دلالة من دلالات الزمن فهو يوحي بتقدم العمر، واتجاه عجلة الزمن نحو الموت: «ويتحسر الشيوخ على أيام الشباب في محاولة للتعـويض عـن الآلام التـي يلاقونهـا فـي شيخوختهم، ويذكرون تلك الأيام والفرحةُ تملأ عيونهم، ولكن الحسرة تظـل تغلفهم، إنهم أمام عجز الشيخوخة لا يجدون ملجأً لهم إلا في الأيام الخالية، أيام الشباب، ينفصلون عن واقعهم، ويغتربون عنه، بحثا عن عـالم يخلـق التوازن النفسي في داخلهم» [٤].

والشيب مدعاة للوقار وتوديعًا للشباب، يقول العكبري[٥]:

---

(١) ديوان الأحنف، ص ٢٦٦.

(٢) الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي، عزيز السـيد جاسـم، بيـروت: دار الأنـدلس ١٤٠٦هـ، ص ١٤٤.

(٣) ديوان الأحنف، ص ٤٣٧.

(٤) الغربة في الشعر الجاهلي، عبد الرزاق الخشروم، ص ٢٦٦.

(٥) ديوان الأحنف، ص ٣٤٩.

ذهـــبَ الشـــبابُ وطِيبُـــه وغَـــدا السّـــرورُ مراوِغَـــا

ولبســـتُ مـــن شـــبَا المشيـــبِ مُـــلاً[١] صَـــنِيعًا ســـابِغَا

ويتعجب من إنكارهم للشيب فيقول[٢]:

وقـالوا: شـبتَ قُلـتُ: الشـيبُ حَـتمٌ علـى مـنْ عـاش ذا عمـرٍ طويـلِ

وحينما يكون الشيب نذيرًا بالموت نرى الشاعر يقول في ذلك[٣]:

لِـيَ في الشَّـيبِ زاجـرٌ ونـذيرٌ وبيـاضُ الفُـودينِ[٤] خـيرُ نـذيرِ

إذن بعد هذه الرحلة التي استوقفتنا مع العكبري في غربته الزمانية يظهر لنا جليًّا كيف أنه لم يلق باللوم على أهل زمانه بقدر ما ألقى اللوم على الزمن أو الدهر.

ويبدو أن مشكلة الشاعر مع الزمن عويصة، فإخفاقه في تحقيق طموحاته جعلته يترنم بصوت حزين، ويبكي الدهر ومصائبه، ويصور كيف غدر به الزمان وتكالبت عليه الحوادث والآلام.

ولعل إحساسه بالغربة جعله يوجه سهام لومه للزمن، ويجعله في قفص الاتهام، وجعله يعاني من اغتراب زمانيّ بدا واضحًا من معجمه اللغوي، وتكثيفه للكلمات الدالة على الوقت والزمن، والدهر والشيب.

---

(١) الملاء: جمع ملاءة، وهي الإزار والملحفة، كما ورد في الديوان.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٣١.

(٣) ديوان الأحنف، ص ٢٣٢.

(٤) الفود معظم شعر الرأس مما يلي الأذن، والفودان: جانبا الرأس، اللسان ٣/ ٣٠٤، مادة: فود.

الخاتمة: أسفرت الدراسة عن جملة من النتائج تتلخص فيما يلي:

١- أن ظاهرة الاغتراب من الظواهر الاجتماعية التي لا يمكن إغفالها في أي مجتمع من المجتمعات، وقد حظي مفهوم الاغتراب باهتمام الباحثين في شتى مجالات الفكر والفن، ويعدّ موضوع الاغتراب من الموضوعات الشائكة، التي تتطلب دراسات مستقلة تناسب تشعباته.

٢- أن للأوضاع السياسة في العصر العباسي دورًا كبيرًا في تفاقم ظاهرة الاغتراب لدى الأحنف، ومعاناته من الاضطرابات السياسية والتناحرات المذهبية، كما ساهم العامل الاقتصادي في رفع مؤشر الاغتراب لديه، إذ علت قيمة المال على باقي القيم، وأصبح معيار المفاضلة بين الناس، وكان للتفاوت الطبقي بين أفراد المجتمع أثره في زج العكبري في غياهب الاغتراب، واختياره للعزلة وعدم مخالطة الناس، وكما كان للعامل الثقافي دور لا ينكر في اغتراب الشاعر.

٣- من أهم أنواع الاغتراب التي لمسناها في شعر الأحنف الاغتراب المكاني والزماني، فهما يشكلان حيزًا في شعره، وقد عبر عن غربته داخل الوطن وخارجه، وكان للاغتراب الاجتماعي مساحة شاسعة في نصوص العكبري، فقد عبر عن اغترابه عن الناس واغترابه عن قيم المجتمع، وقد استفحل الاغتراب الذاتي لديه، فنجد اغترابه عن ذاته الأصلية وكذلك إحساسه بالدونية، ولم يغفل الشاعر عن الاغتراب السياسي الذي يتمثل في الاستبداد السياسي، وظلم بعض الحكام.

٤- ندرة القصائد الطويلة في شعر العكبري، فكانت أغلب قصائده مقطوعات صغيرة، فلم يكن مثل شعراء عصره، فهو شاعر شعبي ينطق باسم الشعب، ويراعي جمهوره الذين هم عامة الناس، فهو يعطيهم جرعات

صغيرة تتسع لها أذهانهم، وتستوعبها عقولهم، وليس لديه وقت للإطالة.

٥- يخلو شعره من التكلف، ويمتاز بالسهولة والبعد عن الغموض، فهو يخاطب عامة الشعب.

٦- أكثر من الأبيات التي يصف فيها فقره وحاجته، فكان يوضح لنا عمق اغترابه في قصائد شعرية تثير الشجن والألم.

٧- حفل معجم العكبري اللغوي بألفاظ الغربة والاغتراب.

٨- كشف لنا الأحنف العكبري عن مأساة الفقر في عصره، وأن هناك طبقةً من المثقفين والأدباء تعيش في الهامش، ولا يحظى بالتقريب إلا النخبة التي تخدم أهداف السلطة.

٩- عبر عن الظلم الذي وقع تحته كثير من فئات المجتمع الكادحة من قبل بعض الولاة.

١٠- صدق العاطفة في شعر العكبري.

١١- كانت أشعاره ناجمة عن الإحساس بالقهر والظلم، فلم يستهل قصائده بالمقدمات التقليدية المعروفة، كالوقوف على الأطلال أو النسيب، وما يلي ذلك من وصف الناقة والصحراء والرحلة.

١٢- لم يتأنق في أشعاره، وابتعد عن القوالب الغريبة، ونظم على الأوزان القصيرة.

المراجع:

- أدب الغرباء، لأبي فرج الأَصْبَهَاني، نشرَه عن مخطوطة فريدة في العالم د/ صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت لبنان، ط١، ١٩٧٢م-١٣٩٢هـ.
- الإشارات الإلهية، أبو حيان التوحيدي، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣م، ص ١١٣.
- الاغتراب النفسي والاجتماعي وعلاقتها بالتوافق النفسي والاجتماعي، صلاح الدين أحمد، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٨م.
- الاغتراب سيرة ومصطلح، محمود رجب، ط٤، ١٩٩٣م، دار المعارف القاهرة.
- الاغتراب في الإسلام، فتح الله خليف، عالم الفكر، مج ١٠، ع١، ١٩٧٩م، مجلة دورية تصدر عن وزارة الإعلام في الكويت.
- الاغتراب في الشعر الأموي، فاطمة محمد حميد السويدي، ط١، ١٩٩٧م، الناشر مكتبة مدبولي، صفحة (ت) من المدخل.
- الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، سميرة سلامي، الناشر: دار الينابيع، دمشق، ٢٠٠٠م.
- الاغتراب في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري دراسة في المفهوم والرؤية والفن، صغير العنزي، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٢٣هـ.
- الاغتراب في الشعر العربي المعاصر، نهاد عبد الحفيظ سليمان الشريف، رسالة ماجستير، جامعة الإسكندرية، ٢٠٠٧م.
- الاغتراب في الشعر العربي المعاصر، نهاد عبد الحفيظ، رسالة ماجستير، جامعة الإسكندرية، ٢٠٠٧م.
- الاغتراب في القصة القصيرة في الجزيرة العربية، أميرة علي الزهراني، رسالة دكتوراه، جامعة الملك سعود، ١٤٢٦هـ-١٤٢٧هـ.
- الاغتراب في القصيدة الجاهلية، لمحمود هياجنة، دراسة نصية، دار الكتاب الثقافي، الأردن، عمان ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

- الاغتراب في حياة ابن دراج وشعره، روضة بلال لمولد، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
- الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي، عزيز السيد جاسم، بيروت: دار الأندلس ١٤٠٦هـ.
- الاغتراب في شعر أبِي العلاء المعري دراسة موضوعاتية فنية، حياة بوعافية، رسالة ماجستير، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة، ٢٠٠٨-٢٠٠٩م.
- الاغتراب والإبداع الفني، محمد عباس يوسف، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- تراجيديا الموت في الشعر العربي المعاصر، د عبد الناصر هلال، الناشر: مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٥. (د، ت).
- تهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري. تحقيق: عبد السلام هارون وآخرين، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة١٩٦٤م-١٩٦٧م.
- خطاب الموت في الشعر الجاهلي، أحمد الحسين، مجلة نزوى، مؤسسة عمان للصحافة والنشر، ص ٦، http:/ / www. nizwa. com
- دراسات في سيكولوجية الاغتراب، عبد اللطيف محمد خليفة، ط ٢٠٠٣، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة،.
- دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر: قادة عقاق، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١.
- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، ط٤، الناشر: دار المعارف، (د، ت)، القاهرة.
- ديوان امرئ القيس، ضبطه وصححه: مصطفى عبد الشافي، ط٥، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- شرح ديوان عنترة بن شداد، عني بتصحيحه: أمين سعيد، المطبعة العربية بمصر، د، ت.
- شكوى الدهر في الشعر الجاهلي، عارف عبد الله محمود، مجلة ديالي، العدد السابع والخمسون، ٢٠١٣.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل حماد الجوهري، ت أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٩٠م، بيروت، لبنان.

- صحيح مسلم، الإمام مسلم، ت محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٥م.
- عمر بوقرورة، الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث،١٩٤٥م-١٩٦٢م، منشورات جامعة باتنة، (د. ط، د، ت).
- الغربة في الشعر الجاهلي، عبد الرزاق الخشروم، الناشر: اتحاد منشورات العرب، دمشق -١٩٨٢، (ت-ط).
- الغربة والاغتراب والشعر، عبده بدوي، دار قبا للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٨.
- فتح الباري في شرح صحيح البخاري، لابن حجر العَسْقَلانِيّ، دار مصر للطباعة، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.
- فكرة الزمن في الدراسات العربية، حسين جمعة، مجلة التراث العربي، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق العدد ٨٦-٨٧ ربيع الآخر ١٤٢٣هـ، آب (أغسطس) ٢٠٠٢ السنة الثانية والعشرون.
- فلسفة المكان في الشعر العربي قراءة موضوعاتية جمالية، د. حبيب مونسي، من منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق، ٢٠٠١م.
- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي، ت: مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط٨.
- اللزوميات، أبو العلاء المعري، حققه وأشرف على طباعته جماعة من الإخصائيين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، (د، ت)، ٢٠٠١م.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
- المحاسن والأضداد، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.
- المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، لعلي بن إسماعيل بن سيده، تحقيق إبراهيم الأبياري، ١٣٩١هـ-١٩٧١م، مكتبة البابي الحلبي.

- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت.
- مظاهر الاغتراب لدى بعض الطلبة السوريين بمصر، بشرى علي، مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٤، العدد الأول ٢٠٠٨م.
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، ط٢، بيروت، دار العلم للملايين.
- مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ت عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- موقف أبي العلاء المعري من الدهر، ٢٩ حزيران (يونيو) ٢٠٠٩، بقلم فرهاد ديو سالار، الشبكة العنكبوتية http:/ / www. diwanalarab. com/ spip. php?article18665
- هموم الفرد والمجتمع بين لامية الشنفرى ورواية الشيخ والبحر، للروائي الأمريكي أرنست همنغواي، د/مصطفى بكري، من محاضراته في الدراسات العليا.
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي، ت إبراهيم صقر، الناشر: مكتبة مصر، د. ت.

فهرس الموضوعات

م	الموضـوع	الصفحة
١-	ملخص	٢٥٦٠
٢-	Abstract	٢٥٦١
٣-	المقدمة:	٢٥٦٢
٤-	المبحث الأول: مفهوم الاغتراب، ورحلته من علم النفس إلى عالم الإبداع	٢٥٧٠
٥-	المبحث الثاني: أهمية المكان والحنين إلى الوطن.	٢٥٨٥
٦-	المبحث الثالث: الشاعر والموت	٢٥٩٩
٧-	المبحث الرابع: الشاعر وأحداث الزمان	٢٦٠٩
٨-	الخاتمة	٢٦٢٠
٩-	المراجع:	٢٦٢٢
١٠-	فهرس الموضوعات	٢٦٢٦

بحمد الله تعالى